يوحنا المعمدان

النبى يحيى

عليه الصلاة والسلام

عبد الرزاق نوفل





يوحنا المعمدان

النبي يحيى
عليه الصلاة والسلام



الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

«إِنَّ الَّذِينَ يَكفُرُونَ باللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُوا بَينَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أن يَتَّخِذُوا بَينَ ذَلِكَ سَبيلاً . أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعتدنا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلَم يُفَرِّقُوا بَينَ أَحَدٍ مِّنهُم أُولَئكَ سَوفَ يُؤْتيهم أُجُورَهُم وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحيمًا» .

« سورة النساء ١٥٠ ـ ١٥٢ »

إهــداء

الى كل من اســــمه يحيى فى المســـلمين
الى كل من اســـمه يوحنــــا فى النصرانيين
الى كل من يريد أن يتعــرف على المرســـلين
اهديهم نبذة عمن كان نبيـــا من الصـــالحين
مستشهدا بآيات القرآن الكريم حديثا للمسـلمين
وبمـا هـو متـداول من نســخ التـوراة
والاناجيــل حديثـا لليهود والمســيحيين .

مقدمة

«والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» .

(١٩ سورة الحديد)

الحمد لله الذى أرسل رسله وأنبياءه لهداية البشر . . منذ أن خلق الخلق . . وكلما احتاج أمر الإنسان لذلك . . وتتجلى سعة رحمته . وواسع بره وبالغ فضله . . ضمن ما تتجلى فى عدد من أرسل من الرسل والنبيين بادئاً بآدم عليه الصلاة والسلام . . وختما بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . ويوضح عددهم ماتحدث به عوف بن مالك من أن أبا ذر جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (أى الأنبياء كان أول فقال صلى الله عليه وسلم آدم . . فقلت . . أو نبياً كان ؟ . . . قال نعم نبي مكلم . . فقلت يارسول الله . . وكم الأنبياء؟. . فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . . فقلت كم المرسلون منهم . . ؟ قال ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً) .

ونحن البشر . . مطالبون عقلا . . ومنطقاً . . وواجباً . . أن نؤمن بكل هؤلاء الرسل والنبيين وأن نضعهم فى مكانتهم . . التى لايرقى إليها سواهم . . ولايزاحمهم فيها غيرهم . . فهم رسل الله سبحانه

وتعالى : : وصفوة خلقه : : اختارهم على علمه : : واصطفاهم بارادته وألا نفرق بين أحد منهم : : فهم جميعاً : : أصحاب رسالة واحدة : : هى رسالة الله للناس : : التى لاتختلف فى جوهرها . . ولاتتغير فى مقصدها : : ولا تتبدل فى هدفها : : فكيف إذا طولبنا بذلك : : شرعاً : : ودينا : :

ولقد حرص الإسلام : : كحرصه دائماً على بيان كل أمر من أمور الدين والدنيا : : أن يبين لأهله ما يجب عليهم نحو رسل الله وأنبيائه : : فدعا إلى محبتهم جميعاً : : والإيمان بهم كاملا : : والسلام عليهم شاملا وذلك بنص الآيات الكريمة :

«سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّة عَمَّا يَصفونَ . وسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلينَ . والْحَمْدُ لِله رَبِّ العَالَمين » .

(١٨٠ - ١٨٢ سورة الصافات)

كما أمر بعدم التفرقة بينهم قطعاً وذلك بمثل النص الشريف :

«آمَنَ الرَّسُولُ بمَا أُنزلَ إلَيْه من رَبه وَالْمُؤْمنونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وَمَلَائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُله لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد من رُسُله وَقَالوا سَمعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإلَيْكَ المصيرُ »

(٢٨٥ سورة البقرة)

وتتكرر مثل هذه الدعوة بالأمر الإلهى الشريف : : مفروض الطاعة : : وواجب الأداء فى آيات كثيرة من القرآن الكريم :

وحيث لايمكن أن تتحمل ذاكرة العباد . . مهما كانوا على أعلى درجة من الذكاء والقدرة : : استيعاب هذا العدد الجم الغفير من الرسل والنبيين : : وحيث لاتتسع صحف الرسالات ولا آيات الكتب حتى للإشارة إلى كلهم : : لذلك فان الله جلت قدرته وسمت حكمته : : قد أورد فى القرآن الكريم بعض هؤلاء الرسل دون غيرهم لحكمة يعلمها : : ومشيئة قدرها : : وذلك بالنص الكريم :

« إنَّا أَوحيْنَا إليْكَ كمَا أَوْحينا إلَى نوح وَالنبيين من بعده وأَوْحينَا إلَى إبراهيم واسماعيل وَإسحَاقَ وَيَعْقوبَ وَالأَسبَاط وَعيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَينَا دَاوُد زَبُورًا . ورُسُلاً قَد قَصَصنَاهم عَلَيكَ من قَبلُ وَرُسُلاً لَم نَقصُصْهم عَلَيْكَ وكَلَّم اللهُ مُوسى تَكليمًا » .

(١٦٣ - ١٦٤ سورة النساء)

كما أوردت سورة الأنبياء ما أراد الله سبحانه وتعالى للناس أن يعلموه من أسماء الرسل والنبيين :

وإذا كانت الدراسات قد اتجهت إلى بعض هؤلاء الرسل : : فان البعض الآخر : : لم ينل حقه منها : : ومازال أمره يحتاج إلى مزيد من الدراسات : : وفيض من البحوث : : ولاشك أن من هؤلاء سيدنا يحيى :: صلى الله عليه وسلم : :

ولاشك أن مثل هذه الصفحات لاتتسع لبيان قدر هذا النبى العظيم : : والرسول الجليل : : أو تحيط به : : حتى الإحاطة العابرة

فلتكن إذا تذكرة . . نتذكر بها سيدنا يحيي . . ونبحث ونتدارس حتى يتضح لنا بعض شأنه . . ونعان عن بعض حقه . .

والصلاة والسلام عليه . . وعلى الأنبياء والرسل من قبله . . منذ آدم . . وعلى كل من هم بعده . . حتى خاتمهم وآخرهم . . رسول الله الصادق الأمين . . سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . البشير النذير . . الذى أرسله بخاتم الأديان وأكملها وأتمها للعالمين . .

«سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا كَعَرضِ السَّماءِ وَالأَرضِ أُعِدَّت لِلذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِه ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ » .

(٢١ سورة الحديد)

صدق الله العظيم

المؤلف

عبد الرزاق نوفل

٨٠ شارع قصر العيني ــ القاهرة

نعم
عليه الصلاة والسلام

فالنبي .:. كل نبي ... إنما بعثه الله سبحانه وتعالى هاديا وداعيا إلى الله ... بشيرا ونذيرا :..

والرسول .: كل رسول .. إنما أرسله جل شأنه بما أوحى إليه به من كتاب ليدعو الناس به إليه .:: ويعلن لهم ماراده سبحانه أن يبلغهم به عنه :

وإن كان كل نبي قد بعث إلى ناسه .:. وإلى زمانه ... وكل رسول أرسل إلى قومه : وفي مكانه .:. وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بعث لنبي للأقوام عامة .:. وأرسل رسول للناس كافة .:. فقد أمرنا الله عز شأنه أن نؤمن بهم جميعا .:. ولانفرق بين أحد منهم فكلهم اختارهم على علم .:. ليكونوا أنبياءه ورسله وأكد جل شأنه وتعالى على عباده ألا يفرقوا بينهم .:. وكرره في القرآن الكريم .:. بمثل النص الشريف :

(والَّذينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسلهِ ولم يُفرِّقُوا بين أَحَدٍ مِنهُم أُولئكَ سَوفَ يُؤتِيهِم أُجُورَهُمَ وكَانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً) .

(١٥٢ من سورة النساء)

ومن ضمن صور عدم التفرقة أن نصلي عليهم جميعا ونطلبها لهم من الله سبحانه وتعالى :

وهذا ما أراده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما علمنا صيغة التشهد التى يتلوها المسلم تسع مرات على الأقل يوميا فى صلاته حيث يقول

« اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم » ...

والأنبياء والرسل بعد سيدنا إبراهيم هم من آل سيدنا إبراهيم فكأنهم جميعا عليهم من الله الصلاة والسلام ...

كما أننا ونحن نطلب الصلاة والسلام على آل سيدنا محمد أفلا نطلبها لأنبياء الله ورسله ؟

والله سبحانه يقرر أنه يصلى وملائكته علينا جميعا بالنص الشريف :

(هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيكُم وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلِى النُورِ وَكَانَ بالمؤمِنِين رَحِيماً) ..

(٤٣ سورة الاحزاب)

أفلا نطلبها لأنبيائه ورسله ؟

نعم ... على نبينا ... وعلى الأنبياء من قبله الصلاة والسلام

حقيقة الإسم

« يا زكريا انا نبشرك بغلام
اسمه يحيى لم نجعل
له من قبل سميا . »
صدق الله العظيم

ورد اسم هذا الرسول النبى بلفظ (يحى) فى القرآن الكريم وذلك فى عدة مواضع من سور مختلفة مثل ماجاء فى النص الشريف :

«يا زَكَريا إِنَّا نبَشِّرُكَ بغُلَامٍ اسْمُه يحيى لَمْ نَجْعَل له من قَبل سَميا » .

(٣٩ سورة آل‌عمران)

وأوردت النسخ المتداولة من الأناجيل اسمه بلفظ (يوحنا المعمدان) وذلك كما جاء فى انجيل متى فى الإصحاح الثالث حيث يقول :

(وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية) .

وبلفظ (يوحنا) فقط كما جاء فى انجيل مرقس فى الإصحاح الأول حيث يقول :

(كان يوحنا يعمد فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا) كذلك كما جاء فى انجيل لوقا حيث يقول فى الإصحاح الأول :

(فأجابت أمه وقالت لابل يسمى يوحنا) :

وفى انجيل يوحنا كما جاء فى الإصحاح الأول حيث يقول :

(وهذه هى شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت)

ولفظ المعمدان كما وردت فى إنجيل متى إنما هى صفة لاسم يوحنا حيث كان يعمد كل المستجيبين لدعوته : : الداخلين فى ديانته : : كما يشير نص انجيل مرقس السابق وكما جاء فى نص انجيل لوقا حيث يقول فى الإصحاح الثالث

(أجاب يوحنا الجميع قائلا أنا أعمدكم بماء) :

وكما يشير نص انجيل يوحنا فى الإصحاح الأول حيث يقول : (فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي) :

فاسم هذا الرسول النبي هو يحي كما جاء فى القرآن الكريم :: ويوحنا كما أوردته النسخ المتداولة من الأناجيل : : ومقصود الاسمين واحد : : وهما لشخص واحد : : ولاجدال فى ذلك فانه : : ابن سيدنا زكريا : : إذ يقرر القرآن الكريم ذلك فى النص الشريف:

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِين . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحيَى)

(٨٨ – ٨٩ سورة الأنبياء)

وكذلك تقرر الأناجيل هذه الحقيقة كما جاء فى الإصحاح الأول من انجيل لوقا حيث يقول :

(وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا : فأجابت أمه وقالت لابل يسمى يوحنا) :

وهكذا يتأكد الأمر أن يحيى . . هو يوحنا . فهل هما اسمان . . مختلفان . : أم أنه فى الحقيقة اسم واحد . . وقع فيه تغيير يجب تصحيحه : . إذ أن أسماء الرسل والنبيين واحدة لم تتغير وأوردتها الأناجيل كما وردت فى القرآن الكريم . . كالسادة . . ابراهيم . . وموسى . . وزكريا . . وعيسى . . وغيرهم الذين لم تختلف أسماؤهم . . ولم تتغير ألفاظهم . . ولم تتبدل حروفهم . .

إن المتأمل للفظ (المَعْمَدان) يجد أنها اسم الفاعل من الفعل (عَمَّد) وعمد بمعنى غَسَّل . . إذ كان الرسول النبي يغسل أتباعه بالماء . . ويطلق على أتباعه اسم (المعمّدين) أو المغتسلين . . أو المغتسلة . . فاذا أردنا إطلاق الصفة على من عمد . . أو غسل قلنا المغتسل . . أو المعمد . . فيقال بذلك يوحنا المغتسل . . أويوحنا المعمد . . ولايمكن أن نقول يوحنا المغتسلان . . أو يوحنا المعمدان . : لأن المغتسلان . . أو المعمدان هى صيغة للتثنية . : والمعمد . : ليس اثنان . . بل واحد : : فهو بلاشك أو جدل : . وبلانقاش أو تفكير : . يوحنا المعمد . : ولا يمكن أن يكون يوحنا المعمدان : :

والألف والنون : : فى المعمدان . : طالما أنهما ليستا للتثنية : : فهما زائدتان وبلا داع : : وهذه الزيادة تلاحظ دائماً فى الصيغة السريانية المعروفة : : والمتداولة حتى الآن . . حيث تضاف الألف والنون دائماً فى نهاية الاسم : : بلا داع : : كما نجد ذلك فى اسم هاجوبيان بدلا من هاجوب : : وعندما يكتب يعقوب فى السريانية . : نجده

قد أصبح يعقوبيان : : ولعل ذلك من الأمور المتداولة : : والشائعة حتى الآن : : حيث نجد : : ارتينيان : : بدلا من ارتين : : وناصيبيان بدلا من ناصيب : : وكذلك كرستيان : : وجوليان : : وهكذا الألف والنون زائدتان فى المعمدان : : وصحتها لاشك المعمد : :

أما لفظ (يوحنا) : : فاننا لورجعنا إلى تركيب حروفه كما جاءت فى اللغات الأجنبية نجدها كلها تذكره على أنه (يوحان) : : فنجد اسمه وصفته بهذه الهيئات ومختلف اللغات . Jean Baptiste . Johannes des Jaifers ومعنى هذه الصفات الواردة مع الاسم هى المغتسل أو المعمد : : مما يقطع أنها لاسمه وصفته . . لاسيما وأنها بهذا التركيب مطبوعة على صور توزع فى مختلف أنحاء العالم لرأس الرسول النبي بعد قتله وأنها تتداول بهذه الصفة وهذه الأسماء من عشرات المئات من السنين : :

فالاسم إذا طبقا لما جاءت به المصادر الأجنبية هو يوحان : : واختلف وضع الألف والنون وتبادلا : : لتصبح يوحنا : : بدلا من يوحان : .

وإذا ما تدبرنا اسم يوحان : : وجدنا : : أن الألف والنون لاشك زائدتان : : كما اتضح ذلك من لفظ المعمدان : : وكما حدث ذلك فى الأسماء التى أورثها الصيغة السريانية : : ويكون تركيب الاسم وصحته : : هو : : بدون الألف والنون : : سواء أكان الاسم : : يوحان : : أو اختلف وضع الألف والنون لتصبح يوحنا : : ويكون الاسم هو يوحى : : ويوحى إنما معناه كما يتضح ذلك لأول وهلة : : هو استمرار الحياة : : أى أنه يحي : : ويكون صحة الاسم وحقيقة

التركيب ؛ ؛ وضرورة الترتيب أن يكون يحي ؛ ؛ سواء كتبت يحيى ٠ أو كتبت يوحى ٠

ولاشك أن تسمية الإنسان ؛ ؛ بالحياة ؛ ؛ لم تكن معروفة ؛ ؛ ولم تكن متداولة ؛ ؛ بخلاف أى اسم آخر ؛ لادلالة له ؛ ؛ كجون ٠ ٠ أوجان ؛ ؛ أو جوهان ٠ ٠ أوجوهنا ؛ ؛ وذلك ما يقرره انجيل لوقا حيث يقرر أن اسم هذا الرسول النبي لم يكن متداولا من قبل حيث يقول :

(فأجابت أمه وقالت لابل يسمى يوحنا. فقالوا لها ليس أحد فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم) ولا شك أن الاسم ؛ ؛ لابد أن يكون غريباً ؛ ؛ وغير متداول ؛ ؛ ولم يعرف من قبل ؛ ؛

فما أصدق القرآن الكريم ؛ ؛ وهو يقرر الحق ؛ ؛ والصدق ٠ ٠ الحق الكامل ؛ ؛ والصدق الشامل فى تسمية هذا الرسول النبى ٠ ٠ حيث لم يكن لأحد من قبله هذا الاسم ؛ ؛ وذلك فى النص الكريم :

(يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام اسْمُهُ يَحيى لَم نَجْعَل لَهُ من قَبلُ سَميًا)

(٧ سورة مريم)

وهكذا فان الاسم الصحيح لهذا النبي هو يحي ؛ ؛ الذى لم يكن له من قبل المثيل ؛ .

معجزة في مولده

ولد من أب لا ينجب ..
ومن أم لا تلد .. فكان
ميلاده معجزة من الله .

إن من ضمن ما أيد الله به سبحانه وتعالى بعض رسله وأنبيائه : : دلالة على رسالتهم وبينة لأقوامهم على صدق دعوتهم . . مخالفة مولدهم لما يتم عليه إنجاع التوالد . : فكل إنسان لابد أن يولد من أب قادر على الإنجاب : : وأم صالحة للحمل والوضع والإرضاع ولا خلاف فى ذلك إلا لما يريد الله جل شأنه أن يظهر به معجزة : : أو يحدث به أمراً : .

فآدم أول البشر . : خلق بلا أب : : وبلا أم : : هكذا قرر الدين . . كل دين : . وهذا ما يؤيده العقل والمنطق والدليل والبرهان فاذا كان كل مخلوق قد خلق من أب وأم . : ويتدرج الإنسان بفكره . . ويتابع : . ويعود القهقرى . . إلى أول ولادة تمت على وجه الأرض . . كانت من أول أب . : وأول أم . : أيا كان اسم هذا الأب .. آدم أو غيره . . وأيا كان اسم الأم . : حواء : : أو غيرها . . وأيا كان تاريخ وجودهما . : نصف مليون من الأعوام أو أكثر فياترى من أنجب هذا الأب الأول . . وهذه الأم الأولى . . ؟ .

إن الحقيقة العلمية . : والرد العقلى : : والإجابة الدينية : : كلها تلتقى عند أن الله سبحانه وتعالى خلقهما . : بغير أب ولا أم : : وهكذا كانت معجزة خلق آدم وحواء . : بلا أم

أو أب . . لتظل المعجزة . . يتداولها العباد . . وتتناقلها الأجيال في مختلف الأزمان . . يذكرونها فيؤمنون بمن خلق . . ويتدبرونها فيعبدون من إذا شاء أمر . . ومن إذا أمر . . كان . . فهذه المعجزة في الخلق . . ولو أن ظاهرها . . أنها لم تكن دليلا على رسالة آدم . . إلا أنها تأكيداً لما سيقوله لأبنائه . . وتأييداً لما سيأمر به أولاده . . وينهى عنه أحفاده . . تبليغاً لهم بما أراده الله . . فأبلغه به . . أمراً . . ونهياً . . وعندما يجد الأبناء . . ويناقش الأحفاد . . أن آدم . . وحواء خلقا . . بغير الطريق الطبيعي . . وأنه لم يتم بأب وأم . . حتى تتكون الذرية . . فالله سبحانه وتعالى لاشك . . أراد . . فخلقهما . . خلقاً بطريق لايتكرر . . ويحال لايتجدد ومن ثم . . فلابد للإنسان . . أن يستجيب لهما . . ويأتمر بأمرهما . . وأن يصدق تماماً . . كلامهما فهما لاشك يعلنان إرادة الله . . ويشيران إلى قدرته . . وعظمته . . في الخلق والإبداع . .

وسيدنا عيسى . . عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . . ولد من أم . . وبدون أب . . مخالفاً بذلك ناموس الولادة . . معارضاً بذلك كل قوانين الوضع والإنجاب . . مغايراً . . لكل ماتم من توالد وذرية . . وما ذلك إلا من سبل إظهار معجزته . . وأدلة رسالته من الله . . فعندما يناقش الإنسان كيف ولد . . وعندما يستعرض كيف تلد العذراء . . التي لم يمسسها بشر . . ولم يقربها رجل . . لاشك سيؤمن تماماً بأن من ولدته . . بلا أب . . ومن وضعته . . بلا رجل كان من إرادة الله . . وبأمره . . ومن معجزاته . . فلابد أن من ولد . . بهذه المعجزة . . إنما هو من رسل الله وأنبيائه . . .

والله أعلم : : كم عدد الرسل والنبين الذين ولدوا : : بغير الطريق الطبيعى إشعاراً لقومهم برسالتهم : : ولا كيف كان مولدهم : : إلا أن الأديان الأخيرة قد أوضحت أن من هؤلاء الرسل والنبيين سيدنا عيسى : : ومن قبله سيدنا يحيى : :

كان لسيدنا زكريا من اسمه : : كل النصيب : : فزكريا هى زكراليا : : باللغة التى كانت موضع التخاطب فى زمانه : : وهى تعنى من يذكر الله ويطلب من الآخرين أن يذكروا الله وكذلك من يذكره الله فاليا هو الله وزكر بمعنى من ذكر أو ذكر . . فلقد كان من رسل الله وأنبيائه الذين يجاهدون فى سبيل الله حق جهاده : : ويدعون إلى عبادته وتوحيده ما وسعتهم الطاقة . . وما مكنتهم الاستطاعة . . كان شأنه شأن الآخرين من الأنبياء والرسل وفى ذلك يقول القرآن الكريم . :

«وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» .

(٨٥ – ٨٦ سورة الانعام)

وكانت زوجة زكريا واسمها اليا صابات . . ومعنى الاسم كما يظهر من تركيبه : . هو صابات أى قسم واليا أى الله أى يمين الله أو قسمه . . أو بما يحلف به لليمين الصادق : : مما يدل على طهارتها ونقائها : : وصلاحها : : وكانت أيضاً من بنات هارون : . كما أنها أخت زوجة عمران : : أى أنها خالة الطاهرة العذراء مريم : :

وعنهما يقول انجيل لوقا فى الإصحاح الأول :

(كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات . وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم) .

واستمر زكريا يذكر الناس بالله . . ويدعوهم إليه . . وكذلك اليصابات . . أما هو فدائماً يتجه إلى معبده . . حيث يقوم على الدعوة . . وأما هى فانها تجد من أعمال هداية النساء عملا دائما لها . . فليس لهما إلا هذا العمل . . وليس لديهما ما يشغلهما عنه . . ويوماً بعد يوم . . وعاماً بعد عام . . استدار الزمان . . وتقدمت الأيام . . وشاخ زكريا . . إذ ضعفت عظامه وهنا . . واشتعل رأسه شيباً . . دون أن تنجب له امرأته الولد . . وكيف يكون ذلك . . وتلك امرأته . . وهى من حيث الأصل عاقر . . لا تلد . . فكيف بها . وقد تقدمت فى السن . . ووصلت إلى سن اليأس . . حيث يستحيل عليها قطعاً الخلف والولادة . إنه إذا أمر الله . وقضاؤه . . وهما إذ يدعوان الناس إلى الامتثال إلى حكم الله . . والرضاء به . . ألا يكونان هما أول المستجيبين . . وقادة السالكين . . ورواد الطائعين . . وفى ذلك يقول انجيل لوقا الإصحاح الأول :

(ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما) .

ووضعت أخت الياصابات وهى امرأة عمران : : وكانت هى الأخرى غاية فى الصلاح والتقوى وكانت قد نذرت مافى بطنها لخدمة الدعوة إلى الله : : إلا أنها وضعت أنثى : : أسمتها مريم : . وسألت الله أن يحفظها من كل شيطان وأن يتقبلها بقبول حسن : : وقد كان : : وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم بالنص الشريف :

. . «إذ قَالَت امْرَأَةُ عمران رَبِّ إنى نَذَرتُ لَكَ مَا فِى بَطنى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّل مِنى إنكَ أَنتَ السَّميعُ العَليمُ . فَلَمَا وَضَعَتْهَا قَالَت رَبِّ إنِّى وَضَعتُهَا أُنثى وَاللهُ أَعلَمُ بمَا وَضَعَت وَلَيسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى وَإنى سَمَّيْتُهَا مَريَمَ وَإنى أُعيذُهَا بكَ وَذُرِّيَّتهَا مِنَ الشَّيطَان الرَّجيم . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُول حَسَن وَأَنبتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا).

(٣٥ - ٣٧ سورة آل عمران)

وتوجهت أم مريم بها إلى الكهنة للإشراف عليها . . وتربيتها : : وتوجيهها . : حسبما يتراءى لهم لصالح الدعوة إلى الله . : ورغب كل كاهن أن يستأثر بهذه الخدمة احتساباً لوجه الله . . وتقرباً له جل شأنه : : فلما اختلفوا فيما بينهم . : وحرص الواحد على أن يكون له هذا الواجب يؤديه باخلاص ومحبة . : اقترعوا فيما بينهم على من يختاره الله سبحانه وتعالى للقيام بهذا العمل الطيب الصالح : : فخرجت القرعة لتختار زكريا ليكفل مريم : . وكيف لا . . وهو الأحق بها . : فهو لاشك أكثر الكهنة اخلاصاً لله . : وأشدهم

اجتهاداً . أليس هو نبيا من الله . . وكيف لا . . وهو الأحق بها . . لأنه زوج خالتها . . كما أنه قريبها من أكثر من اتجاه . . وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

«ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ الغَيب نوحيهِ إِلَيْكَ وَمَا كنْتَ لَدَيهم إِذ يُلقونَ أَقلامَهم أَيُّهم يَكفلُ مَريَمَ وَمَا كنتَ لَدَيهم إِذ يَختَصمُونَ»

(٤٤ سورة آل عمران)

«وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» .

(٣٧ سورة آل عمران)

واصطحب زكريا الشيخ العجوز الهرم معه مريم . . وهو يؤمن إيماناً قوياً بأنه مقبول عند الله . . وأن الله سبحانه وتعالى قد حقق له طلبته . . وأجابه إلى رغبته . . واستجاب إلى أمنيته . بأنه وهبه ما نجعله كولده .. مريم .. وأخذها إلى حيث يقيم .. وإلى حيث يتولى خدمة العابدين . . وهداية الضالين . ومساعدة المحتاجين . . وأفرد لها مكاناً منعزلا . . تجلس فيه . . وكان كلما ينتهى من عمله فى العبادة . . يتوجه إلى مريم حيث تقيم فى جانب من المحراب . . يطمئن عليها . . ويلاعبها . . ويعلمها ويراقب تغذيتها . . فكان يجد عندها رزقا كثيراً . . وخيراً وفيراً . وما كان ليسألها عن مصدره وهم فى بيت من بيوت الله . . والمترددون عليه من عباد الله الصالحين الأتقياء الذين لابد يجودون بما عندهم على من هم فى المعبد . . لاسيما إن كان من يجودون عليهم هم من الأطفال . . والبنات بالتحديد . أومن المذنبين

الخطاة الذين جاءوا للتوبة والاستغفار . . وهؤلاء لابد أن يقدموا بين يدى توبتهم . . الهبات والحسنات . . إلا أن سيدنا زكريا . . كان يجد عجباً . . مما لابد معه أن يسألها . . من أين لها كل ما يراه ؟ . . ومن أتى به ؟ إنه كان يجد عندها الفاكهة الممتنعة . . والحلوى المفتقدة . . فالبلح فى غير أوانه . . والعنب فى الشتاء . . والرمان فى الصيف . . وكثير من المواد التى لاوجود لها فى مكانها . . ولاتظهر فى أيامها . . التى يجدها عند مريم فيها . . فكان دائماً ما يسألها . . فكانت الإجابة المقنعة . . والردود القاطعة . . إنه من عند الله . . لاتعرف كيف جاء . . إنما تلتفت يميناً فتجد حاجتها وأزيد . . وتنظر يساراً لتجد كل ما تتخيله وأكثر . . ثم تجد علاوة على ذلك . . ما لايعرفه الناس . . وما لايناله غيرها . . ولاعجب إنه رزق الله لها . . ورزق الله لاحدود له . . ولاحساب فيه . . طفلة وحيدة . . حيث تعيش بعيداً عن الأم . . أمها صالحة . وأى صلاح . . تهبها لخدمة الله . . والدعوة إليه . . منذ كانت حاملا فيها . . وتقدمها للمعابد . . تترعرع فيها وتنشأ داخلها . . حتى عندما تشب . . تخدم الداخلين . . وترعى السالكين .

وكان لابد أن يكون رزقها سهلا ميسوراً . . وأكلها . . حلالا موفوراً . . والله سبحانه وتعالى وحده . . هو الكفيل بكل عباده . . فكيف بأصفيائه . . وخاصته . . وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

« كلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ

يا مَريَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِند اللهِ إِنَّ اللهَ يَرزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(٧ – ١١ سورة مريم)

إن زكريا يعلم جيداً أن الله قادر على كل شيء . . وإنه لمتيقن تماماً بأن مشيئة الله تتم بلا حدود وبلا أسباب وهو مؤمن حقاً بأن إرادة الله سبحانه وتعالى تقيم المعجزات . . وتخلق المستحيلات التى قد يظن الإنسان ألا سبيل إليها . . ولا طاقة عليها . . ولكنه عندما وجد حال مريم مع الله . . سبحانه وتعالى وقدرته الخارقة جل شأنه التى فعلها . . وكما يرى كل يوم قد أوجدت من عدم . . الفاكهة الممنوعة والأرزاق المقطوعة . . فان نقل البلح من مكان إلى آخر عجيبة لاشك . . ولكنها ليست فى قدر إيجاد البلح حيث لاوجود له . . فالنخل مازال مجرداً . . وسعفه . . لم ينضج بعد . . بل ومكان البلح لم يتحدد مكانه فى النخل بعد .

ولذلك تحركت فى نفس زكريا رغبة قوية . . أن يتجه بجوارحه . . ووجدانه . . وبقلبه وعقله . . إليه وحده . . إلى من خلق لمريم من العدم رزقه الوفير . . والخير الكثير . . يطلب منه ماكان يعتقده مستحيلا . . أن يمنحه الممنوع عليه . . المقطوع منه . . كما منح مريم الممنوع . . المقطوع . . وأن يهبه الولد بعد أن يئس . . وأصبح فى حالة لايمكن معها أن ينجب . . وبرغم أن زوجته . . لاتلد إذ أنها عاقر . . إلا أن تجربة مريم معه . . الدليل الذى لايبارى . . فجعلته يتجه فعلا إلى الله وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

«ذِكْرُ رَحمَةَ رَبِّكَ عَبدَهُ زَكَرِيًّا . إذ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفيًّا . قَالَ رَبِّ إنِّى وَهَنَ العَظمُ منِّى وَاشتَعلَ الرَّأسُ شَيبًا وَلَم أكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقيًّا . وَإنِّى خِفتُ المَوَالِىَ من وَرَائِى وَكَانَت امرأَتِى عَاقِرًا فَهب لى من لَدُنْكَ وَليًّا . يَرثُنِى وَيَرِثُ من آلِ يَعقوبَ وَاجْعَلهُ رَبِّ رَضيًّا» .

(٢ - ٦ سورة مريم)

وأوحى الله جل شأنه إليه . . إذ قالت له الملائكة إن الله قد سمع النداء . . واستجاب للدعاء . . وأنهم يبشرونه عن الله سبحانه وتعالى بمولود طيب . . فاختلط على زكريا الأمر . . وخشى أن يكون ما يسمعه . . حلماً له من أحلام يقظته . . ووهماً . . من أوهام رغبته . . فسألهم . . كيف يكون ذلك وهو هكذا فى حالته . . وزوجته عاقر . . وذلك بالرغم من أنه مستيقن من قدرة الله . . ولكنه السؤال الذى يريد أن يمتحن نفسه بأن ما يسمعه حقاً . . وليس وهماً وبالرغم من الرد الذى سمعه ويعتقده من قبل . . طلب أن يرى آية تلازمه فترة . . ليعرف بها . . ويتأكد منها أنه فى حالة يقظة . . وأن الأمر سيتم . . لاسيما وأن الحمل والولادة . . إنما تحتاج إلى أشهر عديدة . . سيكون أثناءها قلقاً إن لم يكن مطمئناً . . متأكداً . . فقالت الملائكة أن علامته أنه سيفقد القدرة على الحديث . . فلا ينطق ثلاث ليال متتابعة . . وخرج زكريا مسرعاً من المحراب . . ليمتحن نفسه . . ويتأكد من العلامة . . فوجد أنه فعلا لاينطق . . ولكن فقده للنطق

لم يجعله يترك ماكرس نفسه عليه . . من الدعوة إلى الله . . فكان يشير إلى الناس بيديه . ويوحى إليهم بعينيه . . بالاجتهاد فى العبادة . . والتسبيح لله فى كل لحظة وفى كل حين وهكذا يفعل كل صادق مع نفسه . . ومع ربه . . لايمنعه أى شيء عن الذكر والدعوة إلى الله . . حتى ولو فقد القدرة على الكلام أو الحركة . . أو السعى . .

ويقول القرآن الكريم عما وقع فى النص الشريف :

«يازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغُلَامٍ اسمُهُ يَحيَى لَم نَجعَل لَه من قبلُ سَميا . قَالَ رَبِّ أَنَّى يكونُ لى غلَام وكانَت امرأتى عاقرا وَقد بَلَغت منَ الكبَر عتيا . قال كذلكَ قَالَ رَبكَ هو عَلَيّ هَيِّنٌ وَقَد خَلَقْتكَ من قَبلُ وَلَم تَك شَيْئًا . قَالَ رَب اجعَل لى آيَةً قَالَ آيَتكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيال سَويا . فخَرَجَ عَلَى قَومه منَ المحرَاب فَأَوحَى إِلَيهم أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشياً) .

(٧ – ١١ سورة مريم)

ويقول عن ذلك انجيل لوقا فى الإصحاح الأول :

(فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله . حسب عادة الكهنوت اصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر . وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور . فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك لاتخف يازكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا) .

(فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأنى شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها . فأجاب الملاك قال له أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت ذا تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته . وكان الشعب منتظرا زكريا ومتعجبا من إبطائه فى الهيكل . فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل . فكان يومئ إليهم وبقى صامتاً) .

وشعرت زوجة زكريا بالحمل . . ولكنها ظلت متخوفة . . ومضطربة . . فالحقيقة أكبر من أن تحتملها . . كيف تحمل العاقر . . ومن شيخ عجوز . . وكيف ستلد . . وهل سينزل اللبن . . أم ترى أن ما تحس به هو من أوهامها وأحلامها . . ولذلك احتجبت عن الناس خمسة أشهر حتى تستيقن بعد هذه المدة . . وحتى تظهر عليها تماماً علامات الحمل . . واعتبرت أن عدم حملها كان عاراً عليها بسبب من الذنب . . وأن الله عندما غفر لها . . ورحمها . . أزال عنها هذا العار وحملت . . وفى ذلك يقول إنجيل لوقا فى إصحاحه الأول :

(وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة : هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر إلى لينزع عارى بين الناس) .

إذا فلقد كانت الياصابات تعتقد أن عدم إنجابها إنما هو من أدلة غضب الله عليها إذ أرادها ألا تحمل . . فتظهر أمام الناس بهذا العار . .

بالرغم من أنها كانت تتعبد وتحترم العابدين ولكنها لم تيئس من رحمة الله بها . . وغفرانه لها . . دون أن تتساءل عن ذنبها . . والسبب فى عارها وهذا هو الإيمان الحق . . والعبادة الصادقة . . يؤمن الإنسان بالله . . الرحمن الرحيم . . ويعبده العبادة الحقة مهما كانت الصعاب التى يلاقيها . . والمصائب التى يصادفها . . فليس على الإنسان إلا أن يؤمن ويتعبد . . وهكذا صبرت الياصابات على ما اعتقدته أنه عار لها بين الناس . . ولم تنحرف عن طريق السالكين ولم تتخل عن الانخراط فى سلك العابدين . . حتى وصلت إلى سن اليأس . . فى الإنجاب . . ولم تيئس من رحمة الله . . وفاض الله عليها برحمته وتم لها تحقيق كل أمنياتها . . وأعز آمالها . . ولدت ابناً وفى ذلك يقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الأول :

(وأما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً . وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها) .

وبذلك تمت ولادة سيدنا يحيى . . وكما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل مولده معجزة . . لأنه اصطفاه واختاره لأعظم ما يختار له الإنسان . . رسالة الله . . للناس . . فلقد شاءت إرادته أن يجعل اسمه . . كذلك مختاراً منه . . إذ اختار له جل شأنه اسماً لم يكن معروفاً بين الناس . . ولم يكن متداولا بين القوم . . يوضح ذلك النص الشريف بالقرآن الكريم الذى نصه :

«يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا» .

وهل يسمى الناس . . إلا بما سبق أن رددوه . . وألفوه . . وتوارثوه . . وتداولوه . . ولم يكن هذا الاسم قد أطلق من قبل . . فلقد شاء القوم أن يسموه باسم أبيه . . زكريا . . حتى يمتد هذا الاسم الذى قارب صاحبه على الرحيل من الدنيا . . فاطلاق اسمه على ولده . . إنما هو من مظاهر امتداد دعوة الأب . . وكان الأب صالحاً داعياً إلى الله . . ولكن أمه . . رفضت . . وأوحى الله لها بالاسم . . ثم سألوا الأب عن بغيته فى الاسم . . فأوحى الله له أيضاً بالاسم . . وكتبه . . لينطقه الناس . . وينطقه معهم . . وفى ذلك يقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الأول :

(وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا . فأجابت أمه وقالت لابل يسمى يوحنا . فقالوا لها ليس أحد فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم . ثم أومئوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمى . فطلب لوحاً وكتب قائلا اسمه يوحنا . فتعجب الجميع) .

وهكذا تشير الأدلة كلها على أن اسم هذا النبى لم يكن معروفا ولا متداولا . . وأنه مما يثير الدهشة والعجب . . فيكون يحيى . . فالحياة لم تكن تطلق على الناس . . لأنهم إلى فترة . . ثم يموتون . . أما يوحنا . . بهذا النطق فلا يثير دهشة . . ولايعنى شيئاً . . كما أن يحيى . . لأبيه زكريا وهو على حافة القبر . . إنما يعنى . . ولد لزكريا منه ليحيا به . فهو يحيى حقاً . .

فلقد ولد إذا سيدنا يحيى . . من أب من الأنبياء . . ومن أم عابدة من الطيبات . . ومن أجداد صالحين وصالحات . . ولد من

أب تقدمت به السن : : وارتعشت يده : : واهتزت ساقه : : ووهن عظمه : : وشاب شعره : : وانحنى ظهره : : وضعف بصره : : فلقد شارف على المائة عمراً : : ومن أم عقيم لاتنجب أصلا : : وعاقر لاتلد قطعاً : . وعجوز لاتدر لبناً أبداً . : ولكن الله سبحانه وتعالى أصلحها : : وأصلحه : جزاءً بما كانوا يسارعون فى عمل الخيرات: : وكانوا يدعون الله فى كل حالاتهم : : وعلى كل أحوالهم . . ولأن الله سبحانه وتعالى قد شاء وطالما شاء ، فقد أطاعت السماوات والأرض والوجود مشيئته : : وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

« وَزَكَرِيا إذ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَاتَذَرني فردًا وَأَنْتَ خَيرُ الوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصلحْنَا لَهُ زَوجَهُ إنَّهم كَانوا يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَات وَيَدعُونَنَا رَغَبًا وَرَهبًا وَكَانوا لَنَا خَاشعين »

(٨٩ – ٩٠ سورة الانبياء)

وهكذا ولد سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام بمعجزة : : وأى معجزة : : فلقد ولد من أب لاينجب : . ومن أم لاتلد : : فمن المستحيل أن يلدا : . إلا بمعجزة من الله : : فكانت : : وكانت معجزة للابن : : كما كانت للأم والأب : :

الصوت الصارخ في البرية

صرخ النبى يحيى فى البــرية ..
هاتفــا داعيــا . . مبشرا ..
ومنذرا بكل ما دعت اليــه الأديان
السابقة وبكل ما تدعو اليه الأديان
اللاحقة .. فكلها من عند الله ..

لا يمكن للإنسان أن يتصور قدر فرحة التقية النقية الياصابات العاقر العقيم التى جاوزت سن الحمل فى الميلاد . . ولا سعادة التقى الصالح البار سيدنا زكريا الشيخ الذى يقترب من المائة . . وقد وهبهما الله بعد الصبر الكامل . على ما حرما منه . . والرضاء الشامل بما قضى عليهما به . . العطاء العظيم . . والمنح الكريم . . الولد الذى سيستمر فيه عيشهما وقد شارفا على الرحيل . . وستمتد به حياتهما التى قاربت إلى زوال .

ولهذا فلقد أسماه الله سبحانه وتعالى يحيى : . فيه سيحيا زكريا . . وبه ستحيا الياصابات . . فطالما عاش الولد . . سيقول الناس ابن زكريا . . ويقول البشر . . ابن الياصابات . . فهو إذا ولد ليحيى زكريا ولتحيى الياصابات .

ولا يمكن للإنسان . . أن يتخيل قدر ما أصاب الناس من البهجة والمرح . . والعجب والطرب بمولد يحيى . . فإن الأهل والأقارب والأصدقاء . . قد سرهم وأسعدهم . . ما أسعد شيخهم وشيختهم : . أما باقى الناس من غير الأهل . أو الأصدقاء . . فقد أثارهم العجب . . وشملتهم السعادة . . حينما وجدوا رحمة الله تشمل عباده . . إلى هذا القدر . . وبهذا القدر . . إذ يستجيب لمن يخلص الدعاء . . ويستمع ممن يصر على النداء . . ولهم فى ذلك خير المثل . . وحسن الاقتداء . . ويستولى الطرب على الجميع . . على الأقربين . . والأبعدين . . ويشمل الفرح الناس أجمعين . . إن رحمة الله قريب من الناس : . قريب من العالمين . .

ولعل كل الناس . : جميع البشر . ممن علموا : : وممن حضروا تفكروا . : وتدارسوا : : ترى : : ماذا يكون حال هذا الطفل . : وأى شأن ترى سيكون له : . هل وهو ابن العجز الهرم يكون ضعيفاً هزيلا : : أم ترى يكون كغيره من الأطفال عادياً وطبيعياً . : سيكون قصير العمر : : لضعف فى تكوينه : : أم سيطول عمره : : حتى يصبح كأبويه ؟ : : وهكذا أصبح يحيى : . حديث كل الناس : : من رأوه : . ومن لم يروه : : وعلى كل لسان : . يذكر يحيى . . بل إن الملك : : ملك اليهود فى زمانه : . وكان اسمه هيرودس . : طلبه دون أن يعرفه : : وأراده دون أن يدرى به : . فلقد جاء قوم من مشرق الأرض إلى أورشليم . . يسألون عن مولود ولد سيكون له شأن أى شأن : . إذ سيصبح ملكاً لليهود : : وتحدث الكهان . : وتدارس الأحبار : : إذ أشرقت نجمة المجد : . من الشرق : . وكان هذا إيذاناً بمولد مولود جديد : . العالم يرتقبه . . لأنه سيصبح : . زعيماً : . وملكاً : . ولذلك فقد سارعوا إلى البحث عنه . . والالتفاف حوله : . والإيمان به : . بمجرد العثور عليه . .

وخاف الملك على ملكه : : وطلب من المجوس وهم القوم القادمون من الشرق أن يبحثوا الأمر : . وينقبوا فى كل مكان . : فاذا اهتدوا إليه : . أخبروه : . وإذا وصلوا إليه أبلغوه : : فكما سيسجدون له : : فانه يريد أن يفعل معهم : : وكما سيؤمنون به : : سيكون هو إمامهم : : وما كان القوم يصدقون هيرودس : : وما كان لهم أن يصدقوه : : فإنه لم يكن صادقاً معهم ولا أميناً فى حديثه لهم : إنه يطلبه : لبقتله : : حتى لا يزاحمه فى ملكه : : ولا ينافسه فى مكانته : :

سار المجوس يضربون فى الأرض فى اتجاه طريقهم : :
والنجم فى السماء يرشدهم ويتقدمهم حتى وصلوا إلى حيث كان
سيدنا عيسى وأمه . . والتقوا بهما . : ثم أوحى إليهم فى أحلامهم
ألا يرجعوا إلى هيرودس ولايبلغوه شيئاً : : ولما انتظر الملك عودتهم
طويلا . . ورجوعهم إليه كثيراً : : وارتقب منهم خبراً لم يرد . :
وسأل عن رد لم يصل :: عندئذ أظهر غضبه الدفين :: وأعلن انتقامه
الرهيب . . فليقتل كل طفل ولد فى البلاد وما حولها . :
مهما كان الطفل . . وأينما كان : . طالما أن عمره لايتجاوز العامين. :
فهذا أفضل وسائل تأمين ملكه : . وهذا أقرب الطرق لقطع خط أ
تولية الطفل أمر المملكة . . وذلك الطفل الذى بدأ الشعب يتكلم
عن شأن كبير سيكون له . . وعن العرش الذى سيرتقيه يوماً . .
وفى ذلك يقول إنجيل متى فى الإصحاح الثانى :

(فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى
أورشليم : قائلين أين هو المولود ملك اليهود . فاننا رأينا نجمة فى
المشرق وأتينا نسجد له : فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع
أورشليم معه . فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين
يولد المسيح . فقالوا له فى بيت لحم اليهودية . لأنه هكذا مكتوب
بالنبى . وأنت يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء
يهوذا . لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل .

حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم
الذى ظهر . ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا
بالتدقيق عن الصبى . ومتى وجدتموه فاخبرونى لكى آتى أنا أيضاً

واسجد له . فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبى فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً . وأتوا إلى البيت ورأوا الصبى مع مريم أمه . فخروا وسجدوا له . ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً . ثم إذا أوحى إليهم فى حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس انصرفوا فى طريق أخرى إلى كورتهم .

حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جداً . فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذى تحققه من المجوس) .

ولاشك أن هيرودس قد سأل جنوده الذين كلفهم بقتل الأطفال إذا كانوا قد قتلوا ابن زكريا فلقد ذاع صيته ووصل إليه خبره . . لأنه أرسل إلى زكريا فى معبده يطلب منه تسليمه طفله ليقتله . . بعد أن تبين له مما أجاب به جنوده أن ولداً لزكريا لم يقتل . . حيث لم يجدوه . . ولقد أجاب زكريا رسل هيرودس وجنوده . . أنه لايدرى أين الطفل . . ولا أين أمه . . ولم ينفع معه الضرب ولا التعذيب . . ولاما توعدوه به . . وهددوه . . فأمر هيرودس جنده بأن يقتلوه . . فقتل زكريا بين الهيكل والمذبح . . وفى المعبد . . الذى كثيرا . . بل دواماً . ما تعبد . . ودعا الله . . بأن يرزقه الولد . . وتلقى البشرى بولادته . . من رسول الله الذى أرسله له بذلك . .

واندهش القتلة . . وارتاح القتيل . . وتعجب الناس . . وسجل التاريخ . . هناك معجزة أخرى تمت لزكريا . . والد يحي . .

لقد اختفى جسد زكريا . . حملته الملائكة . . لاشك . . إلى حيث شاء الله . وإلى حيث أراد . . ولقد تجمد دمه . . الذى سال . . فصار كالحجر . . وليس كأى حجر . . أنه حجر أحمر دموى . . إنه قطع صلبة من دماء تشع النار . . وتدعو إلى الثأر . . وسمع من دخل المعبد من الكهنة فى فجر الصباح الباكر . صوتا يتردد فى الهيكل . . لايدرون أمن السماء يهبط . . أم من أعماق الأرض يصعد . . أم من جنبات المعبد . . يصرخ . . أم من حبات الدم يصيح . . أم ترى هو من كل ذلك . . لقد سمع كل من دخل . . وسمع كل من كان فى الرحاب . . أومن قارب بالجوار صوتا يجلجل من الداخل ويقول (قتل زكريا ودمه سيصرخ حتى يأتى المنتقم له) . . ترى من ومتى سيكون المنتقم ؟ . . :

لم يكن زكريا كاذباً حينما قال انه لايدرى أين الطفل ولا أمه . : إذ قد حملت الياصابات على كتفها طفلها بمجرد سماعها بما انتواه هيرودس . . من قتل الأطفال من هم دون العامين . . وخرجت مغادرة للديار . . لاجئة إلى الجبال . . ترى كيف كان قلب زكريا :

وكيف كانت نفسه . . طفله الذى ظل يرتقب حلمه به عشرات السنين . . يغادره . . إلى حيث لا أهل ولامأوى . . إنه يستودعه الله وما أوسع رحمة الله . . وما أعظم شأنه . . ترى هل بكى زكريا طفله . . هل قبله . . إن الموقف أكبر من البكاء يقيناً . . وأعنف من قبلة يودعها أب على جبين ابن . . يعلم . . أن الدنيا . . تفرق بينهما . . ولامندوحة من ذلك ولامفر عنه . . ولم تشعر الياصابات

بضعف أو وهن . . ولم تحس بمشقة أو تعب . . كان الأمل . يقويها ودفء طفلها فى أحضانها بعزيها . . لايعرف الإنسان . . كيف كانت تأكل . . بل ولا كيف كانت تطعم طفلها . . ولكنها عاشت . . لتعلن بطريق مادى . . وبوسيلة إيجابيه . . أن الله سبحانه وتعالى . . قد تكفل بكل من يخلق . . فهو . . هو وحده . . الرزاق الذى يرزق كل حى . . حتى وان كان طفلا عاجزاً عن السعى . . وامرأة . . مسنة . . غير قادرة عن التكسب . . حتى ولو اجتمعا . . فى صحراء . . موحشة . . أو فى بحر مضطرب . .

لقد عاشت الياصابات مع ابنها يحيى . . ست سنين . . رأت فيه وسمعت منه وشاهدت عليه فيها . . عجبا . . وأى عجب . . بل العجب . . كل العجب . . كان الله سبحانه وتعالى يعده لما سيكون عليه . . ويصنعه ليكون أهلالما سيخصه به . من النبوة والرسالة . . ثم ماتت الياصابات . . وعاش ابن الست سنين . . وحيداً . . يتيماً بلا أم وبلا أب . وبلا أخ . . وبلا أخت . . وأين . . فى الجبال . . والكهوف . . والصحارى . . بلا زاد أو ماء . . وبلا لباس أوكساء . فكيف بدأ يحيى . . وكيف كان . .

كان أول ما وقع بصر الطفل يحيى عليه بعد مولده . . وهو مع والديه وعندما استطاع النظر . . الجموع . . ملتفة حوله . . وهى تسبح لله . . وتذكر قدرته . . وتشكر له حسن عمله وجميل صنعه . . وأنه يتابعهم بعد انفضاضهم من حوله . . متجهين إلى الهيكل والمحراب جماعات وأفرادا . . وهذا والده الشيخ الفانى . . لايقعده أى أمر . . ولا يمنعه أى شأن عن الحديث عن الله . . والدعوة له . . ولاتعوقه

سنه الكبير . . ولا ضعفه الشديد عن ارتقاء المرتفعات . . ولاخوض المنخفضات . . ولاطى الدروب . . وقطع المسافات ليصل إلى أن يعبد الله . . فى معبده . . وحيث يصلى لله فى مسجده . . وهذه أمه الواهنة . . قد تحمله وهى تخدم العابدين . . وقد تتركه أحياناً لتتفرغ للعبادة فى استغراق وتأمل . . واعتكاف وتدبر . .

وكان أول ما سمعته إذن الطفل يحى : . الترانيم والصلوات والدعاء . . وماعادت تسمع أذنه بعد ذلك . . غير ذلك . .

وكان أول ما تحسسته أنفه من روائح الدنيا . . وأنسامها . . البخور يطلق فى كل مكان من حوله . . من أول اليوم حتى آخره . . واستمر ذلك من أول زمانه حتى آخره . .

وكان أول ما أحسه من الشعور نحو الآخرين . . ذلك الذى وجده يفيض من أمه وأبيه . . نحو الفقراء والمحتاجين . . والضعفاء والمساكين فلا يمنحونه هو . . وهو ابنهم . . شيئاً . . إلا بعد أن يعطوا العابرين . . ولاينالون حاجتهم من عطاء العابدين . . إلا مما يفيض بعد أن يأخذ السائلون . . والمعوزون . .

وطبع الله ذلك كله فى وجدانه . . وتقبله يحى ولم ينكره . . وأحبه ولم يكرهه . . وحافظ عليه ولم يتركه . . واعتاده فلم يثر عليه بل تمسك به . . فسعى بقدميه الرقيقتين يدب على الأرض ويسير شوطاً طويلا مع أمه . . أو أبيه . . إلى الهيكل إما ليغسل أرضه . . أو ينظم بعض شأنه . . أو يساعد فى الخدمة . . كأن يحمل البخور بيديه الهزيلتين . . لأنه لم يكن قد تجاوز العامين . .

ومات أبوه . . وماتت أمه . . وهو فى دروب الجبال . . وأعماق الكهوف . . وبدأت وحدته مع نفسه . . وانفراده بربه منذ أن كان فى السنة السادسة من عمره . . طفلا . . صغيراً . . ولكنه بشأن كبير . . لقد تخيل . . وتخيله صدقاً . . أن كل ما حوله . . هو الهيكل الذى كان يتعبد فيه . . وظن وظنه صحيحاً . . أنه إذ ينادى الله . . ويدعوه فى أعلى الجبال . . وأعماق الوديان . . إنما هو يناديه كما كان يناديه فى المحراب . . إذا لقد اتسعت الدنيا أمامه . . وأصبح الوجود كله . بيته . . ومعبده . . وكل الغادين والرائحين وسالكو الدروب . . أو الصاعدون إلى الجبال . . لابد أن يكونوا كالسالكين لطريق العبادة . . الصاعدين إلى الهيكل . . المتجهين إلى المحراب . .

وما كان يجد أكلا . . وهو فى مكانه هذا . . فقد يحمل إليه بعض المارين ما عندهم . . ولكنهم قلة نادرة . . فقلة هى من تمر به . . وندرة منهم من يكون لديها كفاية تعطيه منها . . ولكنه كان يجد أفضل الغذاء وأحسنه قد أرسله الله له . . ميسراً وسهلا . . وحلواً . . وطاهراً ونظيفاً . . وهل هنالك ما هو أعلى وأنقى وأنظف من العسل . . عسل النحل الطبيعى . . فلقد كان يحيى يجده بين شقوق الصخور فى الجبال إذ أن أول ما اتخذت النحل بيوتاً لها . اتخذتها فى الجبال . . وهذا ما قرره العلماء أخيراً . . ووصل إليه العلم . . وقبل أن يصل العلماء . . ويقرر العلم ذلك . . قال به القرآن الكريم وهو القول الصادق العظيم والرأى الحكيم إذ تقول آياته الشريفة :

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ . (٦٨ سورة النحل)

فقبل أن يعد الإنسان للنحل الخلايا . . كانت تتخذ بيوتها فى الشجر . . وقبل الشجر كان بيوتها فى الجبال . . وليس أفضل من عسل النحل للإنسان فهو غذاء . . وهو شفاء . . وذلك بنص القرآن الكريم . . وبما وصلت اليه أبحاث العلم والعلماء أخيراً وبعد أن قال بذلك القرآن الكريم بالنص الشريف :

« يخْرُجُ مِن بُطونِهَا شَرَابٌ مُختَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس »

(٦٩ سورة النحل)

ويكثر فى مثل ما كان يقيم فيه سيدنا يحيى . . الجراد الذى يتوالد بمئات الآلاف . . ويتساقط بالآلاف كذلك وهو مما يستساغ أكله . . بل حتى الآن ما زال هو الطعام الذى تفضله بعض الأقوام فى الصحارى لغذائها فهو لايفسد بسرعة كغيره . . ولحمه يتحمل الحفظ . . وإذا جف بالشمس . . فانه يظل صالحاً للأكل لفترات وأزمنة طويلة . . ولاشك أن الصحارى والجبال توجد بها الدواب التى تسعى . . نافرة . أومستأنسة . . ويحدث أن يموت منها كل يوم بالعشرات . . ليأخذ منها يحيى . . بعض جلودها وأوبارها . . وصوفها ليتخذ منها كساءًا له ولبعض ما يلزمه . . فهذا من ضمن ما بسببه خلق الله هذه الدواب . . وصدق الله العظيم الذى يقول فى آيات القرآن الكريم :

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِن أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ » .

(٨٠ سورة النحل)

وهكذا كان يأكل سيدنا يحيى . . وهكذا كان يلبس . . وقد قال بذلك إنجيل متى فى الإصحاح الثالث إذ ورد فيه النص الآتى :

(ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد : وكان طعامه جراداً وعسلا برياً) .

ولاشك أن كل ما تحدث به سيدنا يحيي منذ طفولته المبكرة كان للدعوة إلى الله : : فقد انفتحت أمامه رقعتها . : فبدلا من الهيكل : : أصبح كل ما حوله . . كأنه الهيكل . : ولم يكن يقتصر فى الدعوة على القادمين للعبادة كما كان يرى مع أبيه وأمه . . ولكنه يتحدث مع كل من يلتقى بهم . . ولاشك أن هذا هو الطريق الأفضل والعمل الأمثل . : فان من يترددون على المعابد والهياكل . . هم قوم مؤمنون بطبعهم . . سالكون بدعائهم . . عابدون . . بسعيهم : : ولكن الأهم هو توجيه هؤلاء الذين لايترددون على المعبد . : ولايتعبدون . . ولايطيعون وهذه من يحيي . . كانت الخطوة الإيجابية . . فى سبل الدعوة إلى الله . : إذ يدعو من لم تسبق لهم الاستجابة . : ولم تعرف عنهم علامات العبادة . : لقد بدأ توجيه كل من يلتقى به إلى الطريق الصحيح : . الطريق المستقيم طريق الله : : حتى يتخلص بذلك من الذنوب : : والآثام : : كل الذنوب والآثام : : ولأنه يعيش فى الصحارى والجبال والوديان : : فانه رأى : : خطورة : : الطريق الملتويه : : وصعوبه . : الارتفاع إلى الجبال : : والانخفاض فى الوديان : : فلماذا لايتخذ الإنسان طريقه الصحيح السليم الخالى من الارتفاعات والانخفاضات : : الذى يبتعد عن الوديان والجبال : : فان أفضل الطرق : : هى الطرق المستقيمة : : لأنها : : أقصر المسافات وأقربها : وأكثرها أماناً وأمناً :: لذلك فان أول ما قاله سيدنا يحيي فى بدء دعوته : : كما جاء فى إنجيل لوقا الاصحاح الثالث :

(فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا ابن زكريا فى البرية . فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا . كما هو مكتوب فى سفر أقوال أشعيا النبي القائل صوت خارج فى البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة . كل واد يمتلىء وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة . ويبصر كل بشر خلاص الله) .

وهكذا وجد سيدنا يحيي بممارسته العلمية فى الحياة أن الإنسان عندما يهبط إلى المنخفضات ثم يلف ويدور حول المرتفعات . . ويتعثر فى كل ما يعوق طريقه من صخور وأحجار إن كل ذلك يؤثر على خط سيره . . ويباعد بينه وبين سرعة الوصول . . وما أقرب الشبه بين الإنسان فى حياته المادية . . وحياته الروحية . . إن روحه أيضاً إذا ما هبطت إلى الدنيا . . ولفت ودارت حول تلال الشهوات . . وتعثرت فى كل ما يتراكم أمامها من الخطايا والذنوب . . فانها تبعدها عن الطريق الصحيح . . وتحول بينها وبين الصراط المستقيم . . ولهذا جاءت دعوة سيدنا يحيي . . تطالب الإنسان . . بالسير الصحيح . . فى حياتيه الجسدية والروحية . . بأن يتحرر من كل ما يعيقه . . يعيق جسمه . . ويعيق روحه . .

ولأن الإنسان دائماً ما يعتقد أكثر فى الماديات ويتجه أسرع إلى الإيجابيات . . فهو يعيش فى الدنيا . . يسعى ويتحرك . . ويمسك بيديه . . ويرى بعينيه . . ويدب على قدميه . . فهو يطلب دائماً ما يمسه ويشعر به ويلمسه ويراه . . فعندما يطلب منه أن يتحلل من ذنوبه . . ويتطهر من خطاياه . . فانه دائماً يحتاج إلى الوسائل المادية . . والسبل

الإيجابية التى تقنعه أنه بما قام به قد تحلل فعلا . . واغتسل عملا . . وتطهر يقيناً من كل ما كان به . . ومن كل ما عمله . .

فالمسلم يتوضأ خمس مرات فى اليوم والليلة . . وفى كل مرة . . يغسل يديه . . ليزيل عنها القاذورات والأوساخ . . وأيضاً ليغسلها من كل ما فعلته . . من ذنوب . . ويغسل فمه ولسانه من كل ما قد يكون علق به من ميكروبات وجراثيم . . وكل ما قد يكون قاله من أخطاء . . ويغسل أنفه من كل ما دخل فيها من أتربة ومن كل ما تدخلت فيه بغير حق . . ويغسل عينيه من كل ما قد يكون عاق بها من أذى . . وكذلك من كل ما رأته من عورة أو مستور ما كان يجب عليها أن تراه . ويغسل أذنه من كل ما قد يكون دخلها من مواد غريبة وأيضاً من كل ما سمعت من وزر أو نميمة أو باطل . . ثم يمسح رأسه ليزيل عنها ما علاها من شوائب . . وليتحلل من كل ما ألقى عليها مقابل خطاياه . . ثم يغسل قدميه من كل ما لحق بها من دنس وأيضاً من كل ما سعت بها إلى باطل . . وهو يكرر هذا الغسل ثلاث مرات فى الوضوء الواحد . . فهو إذا قد غسل كل أعضائه مما عليها من أوساخ وأدران كما غسلها أيضاً من الذنوب والآثام . . وآثارها . . وهو بنفسه الذى قام بهذا التطهير . . كما أنه هو الذى قام بالذنوب . . والإنسان عندما يقوم بها . . إنما يتأكد . . ويعتقد أنه يغسل ما ارتكب من ذنوب بطريقة مادية . . وبوسيلة إيجابية . . ولكن مازال داخله يحتاج إلى تطهير . . فالقلب . . والروح . . والعقل . . وهما ما بداخل الإنسان . . تذنب أيضاً . . بل لعلها . . أكبر فى الذنب . . وأعمق فى الخطأ . . وأخطر فى الأثر.

فهل يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه الأجزاء منه . . فيغسلها . . بالماء . . أو الدواء ؟ . . إن هناك ما هو أفضل من الماء والدواء : : إنه التطهير الخاص بقلب الإنسان ونفسه وعقله ووجدانه : : الصلاة : التى تعقب كل ضوء . . إذ فيها يتجه الإنسان إلى الله . : يقف بين يديه . : وهو دائماً بين يديه . . إلا أنه فى الصلاة . . يتخذ الطريق الصحيح . . وينظف نفسه ما أمكن . . ويقف يهتف باسمه : : وهو سبحانه وتعالى الذى يسمع همسات صدره . . وخفقات قلبه : : إلا أنه اتخذ حالة مادية إيجابية ليشعر بها أنه يقف بين يدى ربه : : يسبح له : : ويحمده . : ويدعوه إلى أن يغفر له . : ويطلب منه أن يهديه إلى أقصر الطرق للوصول إلى رحمته . . الصراط المستقيم : : الذى يوصل الإنسان فى أسرع وقت إلى سعادة الدنيا والآخرة . .

ولقد دعا سيدنا يحيي إلى التوبة . : وقال إنجيل متى فى الإصحاح الثالث :

(وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية : قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء) .

والتوبة إنما تتحقق بأن يعترف الإنسان بذنوبه : : ويندم على ارتكابها : : ويعزم على ألا يعود إليها . : ثم يستغفر الله عنها . : ليغفر الله له فيسامحه عنها : . ولا يحاسبه عليها :

والتوبة هى ما دعت إليها الأديان كلها . : السابقة على ديانة يحيي . : واللاحقة عليه . : ولقد كرر القرآن الكريم الدعوة إلى التوبة : : بل إنها تتردد فى معظم سوره الشريفة . : وذلك بمثل ماجاء فى النص الشريف :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ يَوْمَ لَايُخزى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(٨ سورة التحريم)

بل نزلت فى القرآن الكريم سورة كاملة عنها باسم (سورة التوبة)

وحتى يشعر التائبون بأنهم قد تجردوا من الخطايا . . وتحرروا من الذنوب . . ويلتزمون بطريق الصلاح والتقوى فان سيدنا يحي كان يغسلهم فى الماء . . فكل من استجاب لدعوته . . وآمن بطريقته . . كان لابد له أن يتطهر وأن يتوب . . والتطهر الخارجى إنما كان يتم بالاغتسال فى مياه الأردن . . حيث يغسل كل السالكين معه . . المستجيبين له وذلك بنص ماجاء فى إنجيل متى الإصحاح الثالث :

(حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن . واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم)

ولم يكن الاغتسال فى نهر الأردن لحكمة خاصة أو لسبب يمس هذا النهر : وإنما مجرد أى ماء كان يكفى للاغتسال والتطهر طالما أن النية قد تحققت . . فانه بمجرد توافر الماء : كان يحي عليه الصلاة والسلام يعمد القادمين إليه : الراغبين فى التطهر وذلك بنص إنجيل يوحنا فى الإصحاح الثالث الذى يشير إلى أنه قد عمد فى جهة أخرى : لتوافر الماء فيها وذلك بالنص الآتى :

(وكان يوحنا أيضاً يعمد فى عين نون بقرب ساليم لأنه كان هناك مياه كثيرة وكانوا يأتون ويعتمدون) .

وهكذا كان يحيى يغسل أجسام المذنبين ليدفعهم إلى التوبة ليغفر الله لهم خطاياهم وهذا ما يقوله إنجيل مرقس فى الإصحاح الأول بالنص :

(كان يوحنا يعمد فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا) إنه أمر يشابه الوضوء والصلاة .

لقد بدأت دعوة سيدنا يحيى تنتشر وعرف بها الناس .. وجاءوا إليه من كل ماحوله .. واستمعوا إليه حينما يدعوهم إلى الإيجابيات وإلى الغيبيات بوسائل مادية . . وبأخرى معنوية . . فلقد أقام لهم الصلاة يتوبون بها . . ويستغفرون ربهم فيها . . ولقد غسلهم من كل الأدران والذنوب حتى لايعودوا إلى الذنوب . . وكان يحذرهم من العودة إلى المعاصى بعد التوبة . . بل طالب منهم أن تظهر عليهم آثار التوبة بأن يحسنوا العمل . . وتكون ثمار أعمالهم مما تليق بالتوبة . . ولايعتمدوا على جاه . . أو حسب أو نسب . . وحتى لايعتقدوا أنهم يكفيهم الحسب فهم من نسل سيدنا ابراهيم . . فلقد أقنعهم أنهم خلقوا بشراً ليعملوا ويتعبدوا . . لا ليذنبوا . . ولاليخطئوا اعتماداً على صلتهم هذه بسيدنا ابراهيم . . فلو شاء الله لخلق من الحجارة أولاداً لإبراهيم . . وهكذا فإن لكل إنسان ماعمل . . وسيحاسب على ما ارتكب . . ولايشفع له مال ولاجاه . . ولا أصل ولا أقارب ولا أهل . . ويقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الثالث ما قاله يحيى فى ذلك بالنص :

(وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة . ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا ابراهيم أباً : لأنى أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفاس على أصل الشجر . فكل شجرة لاتضع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار) ..

وهذا ما تقرره الأديان كلها منذ آدم حتى الإسلام فلقد جاء فى القرآن الكريم النص الشريف :

«لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكم يَومَ القيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ » .

(٣ سورة الممتحنة)

كما جاء النص الكريم الآتى :

«يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إلَّا مَن أَتَى الله بقَلْبٍ سَلِيم » .

(٨٨ ــ ٨٩ سورة الشعراء)

ودعا سيدنا يحيى إلى كل ما دعت إليه الأنبياء السابقين عليه : وإلى مادعت إليه الأنبياء اللاحقة به . . ومن ذلك البر بالفقراء : والعطف على المساكين . . ومساعدة المحتاجين . . فمن عنده فليعط من ليس عنده . . من عنده ثوبان يعطى من ليس له . . ومن عنده طعام فليتقاسمه مع من ليس عنده ويسجل إنجيل لوقا فى إصحاحه الثالث ماقاله يحيى للناس بالنص الآتى :

(وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل . فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا) .

وهذا ماتدعو إليه الأديان كلها بل وكل دعوات الإصلاح . .
بل إن الإسلام يقرر أن عطاء المساكين والفقراء إنما هو حق. . والحق واجب الأداء . . وذلك فى مثل النص الشريف :

«فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هم الْمُفْلِحُونَ » .

(٣٨ سورة الروم)

وتتكرر الدعوة إلى العطف على الفقراء وبالبر بالمساكين فى كل سور القرآن الكريم . . بل إن الإسلام قد فرض لهم كما فرض لغيرهم مماتضطرهم الظروف إلى الحاجة . . نصيباً محدداً من مال الآخرين . يخرج إليهم . . اختياراً . منهم . . أو كرهاً إذا لم يخرجوه .

ولأن دعوة سيدنا يحي قد وجدت استجابة فى نفوس الناس . . وأقبل الجميع عليها . . فإنهم كانوا يسألونه عن بعض شأنهم ما موقفهم فيه ليصبحوا من أتباعه . . فلقد سأله الذين يحبون المال . . ويعملون على تحصيله من الناس استجابة لأمر رؤسائهم فطلب منهم ألا يستوفوا أكثر من حقهم وذلك بنص ماجاء فى انجيل لوقا فى الإصحاح الثالث :

(وجاء عشارون أيضاً ليعتمدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل : فقال لهم لاتستوفوا أكثر مما فرض عليكم) .

والعدل هو مادعت إليه الأديان جميعاً . . وماقام عليه الوجود وما فى الوجود ولقد قرر القرآن الكريم ذلك نصاً فى معظم سوره : . ونزلت سورة باسم (سورة المطففين) . دعوة للناس حتى

لا يأخذوا أكثر من حقهم . . بائعين أو مشترين . . عاملين . . أو متعاملين . . ولقد بدأت السورة الكريمة بالنص الشريف . .

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

(٢ - ٦ سورة المطففين)

- وآيات كثيرة تدعو إلى العدل في الحديث وفي العواطف وفي كل شأن من شئون الدنيا . . . حتى مع الأعداء ومع الأهل والأقارب . . .

كما سألت الجنود سيدنا يحي عند تعميدهم ماذا عليهم وهم يعملون بأمر الحكام . . ويأتمرون عن طريق غيرهم عن سواهم . . فأمرهم بألا يظلموا أحدا ولا يشوا بأحد وفي ذلك يقول إنجيل لوقا في الإصحاح الثالث .

(وسأله جنديون أيضاً قائلين وماذا نفعل نحن . فقال لهم لاتظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم) .

وهذا ما يأمر به القرآن الكريم . . كما تأمر به الأديان كلها فلقد بشر الذين لايقترفون الظلم بمثل النص الكريم :

« الَّذِين آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

(٨٢ سورة الانعام)

وتوعد الذين يظلمون بأشد العذاب وأقساه وذلك بمثل النص الشريف :

(وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) .

(١٦٥ سورة الأعراف)

وبالنسبة للوشاية أو الغيبة فلقد نهى القرآن الكريم عنها كما نهت الأديان كلها وأمرت بالابتعاد عن أقلها بل وعن الظن وذلك بمثل النص الشريف :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

(١٢ سورة الحجرات)

واستمر سيدنا يحيى بن سيدنا زكريا يدعو إلى الله ويطلب من الناس أن يبادروا بالتوبة وأن يتحللوا من الذنوب وأن يؤمنوا بالله ويعملوا الصالحات . . ولقد بدأ الدعوة منذ طفولته المبكرة حين توحد مع نفسه وانفرد بربه وهو فى السادسة من عمره . . فما إن مرت بضع سنوات وأصبح فى فترة الصبا المبكرة حتى كان قد ملأ البرية صوته الصارخ القوى . . يبلغ الناس بما يوحيه الله إليه ويلقى إليهم بمواعظه وحكمه .

ما أصدق القرآن الكريم . . وهو يصف حال سيدنا يحيى : : لقد أجمل كل أمره : . وأظهر كل شأنه فى بضع كلمات قصار : : ذات إعجاز وبيان : : وبديع وبلاغة وإتقان . . إذ يقرر أن الله سبحانه أنزل له كتابه . : وهيأ له ما جعله يأخذ ما فيه بقوة : : وأنه جل شأنه قد أتاه الحكم وهو مازال صبياً وصدق الله العظيم الذى يقول :

«يَا يَحْيَى خذِ الْكِتَابَ بقوة وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبيا» .

(١٢ سورة مريم)

وهكذا صرخ النبي يحيى فى البرية . . هاتفاً . . داعياً . مبشراً ومنذراً . . بكل مادعت إليه الأديان السابقة . . وبكل ما تدعو إليه الأديان اللاحقة . . فكلها من الله . . وكلها تدعو إلى ما فيه صلاح الدنيا والناس . . والفوز فى الآخرة . . بالنعيم المقيم : : والنجاة من العذاب الأليم : :

وهذا شأن كل الرسل والنبيين . . أرسلهم الله سبحانه وتعالى للدعوة إلى وجود الله : . والإيمان به . . وتوحيده . . وعبادته : : وما عبادته إلا بطاعته . . بالتوبة والصلاة والعدل والإحسان وعمل الصالحات . . وصدق الله العظيم الذى يقول :

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدون» .

(٢٥ سورة الانبياء)

ومات يحيى..
وقام عيسى

« ان الذين يكفرون بآيات الله
ويقتلون النبيين بغير حق
ويقتلون الذين يأمرون
بالقسط من الناس فبشرهم
بعذاب اليم ٠ اولئك الذين
حبطت أعمالهم فى الدنيا
والآخرة ومالهم من ناصرين »٠

وانتشر خبر سيدنا يحيي : : وذاع صيته : : وتناقلت الرواة أمره . . وتداولت على الألسن أحاديثه . . وأبلغ كل مسافر : : كل قائم : . وحدث الغادى . . الرائح : . بأن ظهر من يبشر التوابين . : ويطلب استغفار الخطائين . . ويعمد السالكين : . واتجهت الوفود إلى حيث كان : . وامتلأ المكان بمن جاءوا . . خصيصاً : أومصادفة من كل البلدان : . فمن جاء له : . فقد أقام : . لفترة أو فترات ومن كان فى مرور عابر . . حط الرحال ليستمع . . ويتزود : . بل وفد إليه من أقاصى الجهات . : ممن وصلهم بعض أفعاله : . واستمعوا . : نقلا لبعض أقواله : : وبدأت تنتشر موجات من الهدى . : وتظهر علامات من التقوى . : واتسعت رقعة الدعوة : . وأصبح يحيي . : من يسعى الناس كل الناس إليه : : ويخطبون وده : : ويعظمون شأنه : : وأحبته الجماهير الصالحة : : وتعلقت به الجماعات الطيبة : : بل إن الفاسدين من الأفراد : . والأشرار من الناس : . خافوا على أنفسهم منه . : وتاقوا إلى التوبة على يديه : : وهكذا أصبح يحيي على كل لسان : : وبغية كل إنسان : :

ولم يعد الأمر يقتصر على مجرد درس يلقيه معلم : : أو دعوة يدعو إليها مرشد : . أو موعظة يعظ بها واعظ : : بل أصبح الأمر : : تنتظم به جماعات : : وتجتمع حوله حلقات : : وأصبح ليحيي : : الأنصار : . والأتباع : : يتزايدون كل صباح : : ويكثرون كل مساء :

وإذا كان هذا هو موقف الناس : : كل الناس منه : : فيا ترى كيف كان موقف الحكام منه ؟ : : إن النعمة والوفرة فى المال : : قد تنسى الإنسان : : الخطاء : : الممعن فى أخطائه : : المصر عليها . : فضل الله سبحانه وتعالى : وهو ولى النعمة : : وصاحب المال . : فتجعله يغتر بماله : : ويفترى بنعمة الله تعالى عليه : : وإن أبهة الحكم وبريق الجاه : : قد تصرف العبد : المذنب : : الدائم الذنب المتمسك بذنبه : : عن التضرع لله : : والالتجاء إليه : : وتجعله يظلم بما يرتكبه من ذنوب : : تتضاعف : : وتتزايد : : وتتكاثر : : فكل ذنب . : يحمل بعده ذنباً أكبر : : وهذا يجر إلى ذنب أخطر : :

فلقد سبق أن طلب هيرودس ملك اليهود : : جميع الأطفال الذين ولدوا فى فترة معينة ليقتلهم جميعاً : : خشية أن تتحقق نبوءة وصلته : : بأن مولد نجم فى الشرق بعينه إنما دليل مولد ملك جديد يأخذ الملك : . حتماً : : وكان من ضمن الأطفال الذين قر قرار هيرودس أن يقتلهم : : يحيى : : بالذات . : وبالتحديد : : فهاجرت به أمه لهذا السبب وقتل أبوه فداء له : : ثم ماتت أمه : : وبدأ بذلك يحيى : حياته : : يتيماً لأمه وأبيه وهو فى السادسة : : ولكن الآن قد تغير الأمر : : وتغير الشأن : . كثيراً : : وكثيراً جداً . . فلقد مات هيرودس : . وتفتت الملك من بعده : : إلى أرباع : . تربع ابنه الذى اسمه كاسم أبيه هيرودس . : كرئيس ربع على الجليل وفيلبس أخوه على ربع آخر : :

وذلك كما يقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الثالث بالنص الآتى :

(وفى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطى والياً على اليهودية وهيرودس رئيس ربع على الجليل وفيليبس أخوه رئيس ربع على البطورية وكورة ثراخونيتس وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية . فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية) .

وهكذا كان فى هذا الوقت . . يحيى . . قد أصبح مسموعاً . . معروفاً . . محبوباً . . ومرهوباً . . فهو رسول الله فعلا . . ولابد أن يكون فى قدره وفى مركزه وفى منزلته . . التى يجب أن يكون عليها الرسل . .

وسمع هيرودس الصغير بشأن يحيى . . ولابد أنه كان قد سمع به من قبل من أبيه أو من المحيطين بأبيه . . من أنه كان يطلبه لقتله . . ولاشك قد سمع بحب الشعب ليحيى . . والتفافه حوله . . والسعى إليه ليسمعوه . . ويطيعوه . . ويقيناً قد تولدت فى نفس هيرودس أحاسيس مختلفة . . ومشاعر عديدة . . إنه يريد لاشك أن يظهر للناس جميعاً أنه لايعارضهم بمعارضة يحيى . . وأنه لايعاديهم بمعاداته ليحيى . . كما أنه يكره يحيى . . لاشك كراهية . . تعادل كراهيته للموت . . فلا بد أن يموت أحدهما . . فإما أن يقتل يحيى . . أو أن يحيى سيقتله . . ألم تقل النبوءة أن يحيى سيتولى الملك . . أو على الأقل طفل كان فى سن يحيى . . ولم يدع عن أى طفل . . ما أذيع عن يحيى . . ولم يظهر على طفل ما ظهر على يحيى . . والأمر يزداد يوماً . . بعد يوم . . وأصبح ليحيى شأن أى شأن . . إذا فهو المقصود بالنبوءة

وكان هيرودس هذا : : يضرب به المثل للشاب المستهتر السكير العربيد . . فهو لايكاد يفيق من الخمر . . ولاتقف سيئاته عند حد . . ولاينتهى فساده عند فاحشة . . وفى سبيل نزواته . . وطاعة لشهواته . . فانه كان يأتى بأبشع الأعمال . . ويرتكب اسوأ الأفعال . . كان متزوجاً . . من ابنة ارتياس ملك من ملوك العرب . . ولكن له أكثر من عشيقة . . يلتقى بهن فى السر خارج أو داخل القصر . . لذلك كانت دائماً زوجته فى خلاف معه . . ولكنها لاتظهره أمام الناس . . فهكذا دائماً زواج الملوك . . حينما يكون لغرض من أغراض الملك . . وشئون الحكم . .

وذهب هيرودس . . يزور أخيه فيليبس . . الذى استقبله أحسن استقبال . . استقبال الملك . . للملك . . واستقبال الأخ لأخيه . . وكان فى استقبال هيرودس . . زوجة أخيه فيليبس والتى تدعى هيروديا . . وابنته الشابة . . سالومى . . ووقف هيرودس . . ينقل بصره بين زوجة أخيه هيروديا . . وبين ابنة أخيه سالومى . . ثم يمسك بوجه سالومى . . ويتغزل فيها بأعمق ألوان الغزل . . ويصف محاسنها . . بأرق الألفاظ . . وكيف لا . . وهو الشاب الفاسق : : الذى ينغمس دائماً فى الملذات : : والشهوات : . ويعيش دائماً فى الحرام : : وهل من لوم عليه . : وهو يمتدح ابنة أخيه . . أليست هى . : بمثابة ابنته : : وكان كل كلمة يوجهها إلى سالومى : : ينظر من طرف خفى إلى أمها هيروديا : : وأحست هيروديا بأنها المقصودة بهذا الغزل : : فشجعته : : وتقبلته : : فلقد كانت هى الأخرى كثيرة الشبه

هيرودس فى حياتها . . فهى تشرب الخمر . . وتمرح مع الشبان
إنها سيئة التصرف . . شائنة السلوك . .

ومالت هيروديا إلى هيرودس . . ولم يمنعها أنها أم لبنت شابة ذات حسن وجمال يسعى الشبان لخطبتها . . وكذلك أم لولد صبي فى سن يميز فيه القبيح من الحسن . . والردىء من الطيب . . والمفروض أنه بعد اعداداً خاصاً . . ليتولى الملك بعد أبيه فيليبس ولكن خلق المرأة السيئ . . جعلها تتمادى فى الاندفاع . . وراء عواطفها . . التى ألهبها هيرودس . . وتبادلا العشق . . وتكرر اللقاء . . فكثيراً ما يزور هيرودس . . أخيه . . ثم يزوره فيليبس . . بناء على إلحاح زوجته . . وأكثر من ذلك . . ما يتم اللقاء فى الخفاء .

ولم يكتف العشيقان بذلك . . بل أرادا سوياً . . ما هو أكثر من اللقاء . . وأبعد من كلام الغزل . . والحب . . وكيف السبيل إلى أن يمتلك هيرودس . . الذى تجتاحه النزوة الحادة . . هيروديا التى لم تعترف يوماً بزوجها . . فيليبس . . حيث كان جاداً . . هادئاً وهى ما لاترجوه ولا ترضاه . . إنما تريد ما هو عكسه . . وما هو على نقيضه . . وكيف الطريق لأن تتزوج هيروديا المرأة الغانية اللعوب . . هيرودس هذا الشاب المنحرف العابث .

وشاعت بين الشعبين . . شعب هيرودس . . وشعب فيليبس حب الأول لزوجة الثانى رغم أنها امرأة أخيه . . وذاعت القصص والروايات بعضها حقائق . . وبعضها حكايات . . عن مغامرات ونزوات . . والخطيئة دائماً تجد من يذيع بها . . ويشيع عنها . . ويزيد عليها . .

وأشاع بعض أنصار هيرودس . . والمقربين منه . . والحامين له . . أن ذلك العشق والحب إنما هو نوع من السياسة . . فالملك يريد أن يأخذ ملك أخيه . . ونالت هذه الأكذوبة إعجاب شعب هيرودس ووجد هيرودس فيها ما يحقق بغيته . . فلو استولى على ملك أخيه . . ألا يستولى بذلك على زوجته . . وكان هذا من ضمن التفكير السقيم . . والتخطيط غير السليم . . الذى عرف عن هيرودس . . والأسوأ من ذلك . . أن وجد هذا الأمر من هيروديا صدى لما فى نفسها . . فالخيانة من طبعها . . وكان لابد من عمل إيجابى . . يخرص ألسنة السوء التى تتحدث عن هيرودس وهيروديا . . ويساند من يدافعون عنه . .

جمع هيرودس بعض جنده . . وأعد (شلة) من رجاله . . وحبب إليهم غزو ملك أخيه متحدثاً معهم عن وطنيته التى تجعله يضحى بعلاقته بأخيه فى سبيل صالح وطنه . . وحياة ورخاء شعبه . . ولم يأخذ الأمر منهم شيئاً . . ولم يبذلوا جهداً . . فلقد كانت الخيانة مرتبة من داخل ملك فليبس . . حيث عاونت هيروديا الغزاه الفاتحين . . وساعدت الأعداء المهاجمين . . وسهلت لهم القبض على فيليبس . . وطالما أن الملك قد أسر والقائد قد أعتقل . . فقد انتهى الأمر . . كل أمر . .

وألقى فيليبس فى السجن . . وغزا شعب هيرودس بلاد الملك الأسير السجين وارتاح الشعب فقد تحققت أمنيته . . ولكن فرحته لم تدم طويلا . . إذ مالبث أن أشيع أن هيرودس . . قد أخذ هيروديا . .

عشيقة له : : ووجد الخصوم الفرصة مواتية لإعلان الحقيقة : أن كل ماحدث إن هو إلا السبيل ليحظى هيرودس الفاسق بعشيقته الخائنة . : بل وبدأ الذين كانوا معه . : ينسلخون عنه . . وينقلبون من مؤيدين إلى معارضين : . فلقد وجد فيليبس من نفس الناس عطفاً على ظروفه القاسية : . ومحنته المدمرة : .

ولم يعد هناك من مفر لهيرودس : : ولهيروديا من أن يتدبرا أمرهما .. فلماذا بدلامن أن يعيشا سوياً .. أمام الناس فى حرام واضح:: ودنس ظاهر :: يتزوجان : . والزواج مشروع :: ولكنها . : متزوجة ومن أخ من ستتزوجه : : وزوجها مازال حيا يعيش : : فى السجن القريب من مكانهما : : وهيرودس نفسه متزوج :: وزوجته على قيد الحياة : : وزواج هيرودس من هيروديا معارض لكل الشرائع : : مخالف لكل النواميس : : معاد لكل الناصحين من الشرفاء : : مضاد لقول الحكماء . : وكان لابد للمتمسكين بالشرائع أن يحتجوا : : وكان لابد للمحافظين على النواميس أن يعترضوا : : ولو أنه قد قام من بينهم من نافقوا ومن غايروا حقيقة شعورهم ليداروا : : ويمالئوا : : خوفاً من بطش الملك وعدوان أنصاره : :

واختلطت أصوات المحتجين : : وكذلك همسات المشجعين : : وكلها التقت حول حديث يذكر الداعية الصالح : : والراعى الأمين : : والرجل التقى النقى البار : : يحيى . . إنه الرجل الطيب الذى لايفى عن ذكر الله : : ولايتحدث إلا عن توبه الخطاة : : ولايدعو إلا إلى

الابتعاد عن الذنوب والتحلل من الآثام . . ولاشك أن هيرودس كان قد سمع بما ناله يحيى . . من حفاوة . . وما أصبح له من شهرة . . وعلم كذلك أعوانه . . وأشغلهم جميعاً أمره . . يتابعون أخباره ويراقبون أتباعه . . ووضع هيرودس الجواسيس لرقابته . . وأرسل الجنود لزيارته ظاهرياً . . وللوقوف على حقيقة وما يقول حقاً . . واهتم يحيى كذلك بالوقوف على ما يحدث فى القصر . . والإحاطة بما يشير إليه الأمر . . ولو أن الأحداث كانت تصل إليه عن طريق السماء . . والأنباء تأتى إليه يتحدث بها له الزوار . .

ولقد وصل هيرودس اعتراض يحيى على أمره . . ومعارضته له فى فى كل ما ارتكبه . . وأيقن هيرودس برأى يحيى . . دون أن يسمعه . . وآمن به دون أن يصل إليه . . فلا يمكن ليحيى أن يخالف ضميره . . ويعادى شريعته . . ويعارض دينه . . كما وصل يحيى إعجاب هيرودس بنفسه واعتداده بسلطته . . واستهانته بكل القوى التى تشير إلى معارضته . .

لذلك فلقد ارتقب يحيى من هيرودس الشر كل الشر . . ولكنه أحياناً كان يرجو أن يعود هيرودس إلى الله . . فيهديه إلى سواء السبيل . . ويعترف بخطئه . . ويقر بذنبه ويذهب إلى يحيى . . يطلب منه أن يغسله بالماء . . ويتوب . . ولايمكن أن يفقد يحيى الأمل فى إصلاح الخطائين . . حتى ولو كان هيرودس . . الذى يغتر بشبابه ويعتز بصولجانه . .

ولم يتوقع هيرودس من يحيى الخير . . أى خير . . ولو بعض الخير . . بل أنه توقع أن يحمل لواء المعارضة له . . إلا أنه ظن ولو بعض الظن . . أنه يمكنه أن يستميله . . ويسترضيه . . ولو بصمته . . وعدم إبدائه الرأى فى شأنه . . لا بالتأييد . . ولا بالمعارضة . .

وبدأ . . كل جانب يعمل . . واختلطت الأصوات . . ووضح منها ما يقول بضرورة قيام هيرودس بزيارة يحيى فى صومعته . . ولاشك أن من هذه الأصوات . . الضالعة مع هيردوس حيث تريد أن يكسب بذلك جولته . . ومنها الأصوات المضادة له . . التى تريد . . أن يكشف يحيى أمره . . ومن الأصوات . . ما يقول ليحى . . اذهب إلى القصر . . ولاشك أن من بين هذه الأصوات المدسوسة التى تريد تأييداً للملك . بزيارة يحيى له . . ومنها الأصوات النقية التى تريد أن يقوم يحيى بعملية تطهير للقصر . .

وكان يحيى هو الأسرع فى اتخاذ القرار . . فبالرغم من أن العلم يسعى إليه . . ولا يسعى العلم لأحد . . لاسيما إذا كان هذا العلم . . هو العلم بأوامر الله ونواهيه . . ولذلك فان الغالبية أصرت أن يحضر الملك إليه . . إلا أن يحيى . . رأى أن المصلح والداعية لابد له أن يبذل الجهد كل الجهد فى إبلاغ دعوته . . وإعلان رسالته . . وأن يتحمل فى سبيلها الأذى . . كل أذى وأى أذى . . ولو كان هذا الأذى . . فى أخف صوره . . التوجه إلى مقر فاسد . . فيه ملك مذنب . . إن المعابد لاتحتاج إلى وعاظ وهداة . . فان من يغشاها هم التقاة النقاة ولكن المواخير ودور الفساد هى التى تحتاج إلى وعاظ وهداة . إذا فليسع

إلى من يحتاجون إلى الهداية :: وعلى رأسهم هيرودس : . الذى يأتى من الأمور أرذلها : : ويرتكب من الذنوب أفحشها : :

واستدعى هيرودس يحيى : : لزيارة قصره : . تحقيقاً لعدة أهداف منها تهدئة الثائرين عليه : . وتقوية لمركز المؤيدين له : : وفيها كسب وأى كسب . . فان يحيى أصبح له من الأتباع والمريدين كثرة بالغة : : بل إن أغلب الشعب أصبح يأتمر بأمره . . ويستمع إلى نصحه . : ورهناً لإشارته : :

وذهب يحيى إلى القصر . . فى رهط من أتباعه . . واجتمع فيه جمع غفير : . وشعب كثير . . وتكلم يحيى . . فأفاض . . ووعظ فأحسن وأجاد . . لقد ارتفعت الغشاوة من على العيون فرأت : : ومن على القلوب فشعرت . . وندم الجميع . . وتابوا . : واستغفروا وانتهت الزيارة . . وظل أثرها . . قائماً . . إلى أن انعقدت جماعات السوء . . وأديرت الكئوس وباشرت هيروديا . . أمورها مع هيرودس . . وعاد القصر ومن فيه إلى ماكانوا عليه .

وتتكرر دعوة يحيى . . ولايبأس يحيى . . فان الصبر على الابتلاء فيه خير كثير وابتلاء يحيى بأن يذهب إلى دار فاسدة . : وفيها قوم أشرار : : هو ابتلاء صبر عظيم . . والجهد الذى يبذله الداعية بتكرار دعوته : : إنما هو من الجهاد الذى يحرص عليه كل مخلص فى دعوته فكيف لوكان هذا الداعى هو نبى الله . .

ومن هذا التكرار : . ولصدق يحيى فى كلامه . . والتفاف الشعب حوله . : فقد كان هيرودس يهاب يحيى : . ويستمع إليه فى تصديق

وإيمان : وتظهر عليه عند إنصاته له علامات السرور كل السرور : وفى ذلك يقول إنجيل مرقس فى الإصحاح السادس ما نصه :

(لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور) :

وأثناء إحدى المواعظ التى كان يلقيها يحيى فى القصر بين هيرودس وقومه . . إذ دخلت إلى القاعة هيروديا . . وجلست بجوار هيرودس وكان ذلك ضمن خطة وضعها هيرودس حتى إذا ما انتهت الموعظة وانفضت الجلسة . . بلا تعليق من يحيى . . كان ذلك هو السبيل إلى الإشاعة بين الناس أن يحيى إنما يرضى عما حدث . . ويقر بما وقع . . فلقد تزوج هيرودس هيروديا . . ولم تحاول هيروديا يقيناً أن تؤكد وجودها . . أو تثير الانتباه إليها . . ولكنها جلست لتستمع . . أمر يحيى . وهو النبي الرسول . . الذى وضع الله الحق على لسانه . . وأوحى إليه بكلماته . . ماكان ليصمت على خطأ وقع . . أو يصبر على حق قد اعتدى عليه . . بأبشع ما يكون العدوان فواجه الملك بالجريمة التى يتحدث بها الناس سراً . . وجهراً . . فى كل مكان . . وبأقذع لسان . . ولم يتحدث يحيى . . سراً . . ولابصوت عادى . . ولكنه صرخ بأعلى صوته . . صرخ ليسمعه القريب والبعيد . . الحاضر والغائب . . صرخ حتى تردد القاعات والردهات والطرقات صرخاته : ياهيرودس ليس لك حق فى امرأة أخيك الحى . . ولايحل أن تكون لك . . بل إن يحيى وبخه وعنفه

على سوء سلوكه واستهتاره وارتكابه الذنوب والشرور والآثام وفى ذلك يقول انجيل لوقا الإصحاح الرابع . .

(أما هيرودس رئيس الربع فاذ توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيليبس أخيه ولسبب جميع الشرور التى كان هيرودس يفعلها) .

وهكذا تفجر الموقف . . وأعلنت الحرب سافرة بين يحيي . . وبين هيرودس وهيروديا . . وماكان سلاح يحيي . . إلا الاقناع والترغيب . . والانذار بعذاب الله الشديد . . أما هيروديا فقد رغبت فى قتل يحيي . . بل وألحت عليه وكررت فى طلبه . . فلن يرضيها . . بل لاتقبل بأقل منه . . أما هيرودس فهو وإن كان يوافقها . . ويؤيدها إلا أنه يخشى أيضاً من ثورة شعبه . . وحرب اتباع يحيي له . . فاختار أهون الشر . . ورضى بأقل الأمر . . سجن يحيي . . بدلا من قتله . .

وفى ذلك يقول انجيل مرقس فى الإصحاح السادس ما نصه :

(لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا امرأة فيليبس أخيه إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لايحل أن تكون لك امرأة أخيك فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر) .

ولم يشأ أن يعلن هيرودس عن سجن يحيي . . أو يذيع به . . أو يشيع عنه . . خوفاً على نفسه بل وعلى عرشه . . فأعلن بين الناس أنه قد استضافه . . وأنه قد أقامه عنده . . وكان هيرودس يعيش فى قلعة ماكيرا . . أو ما تسمى بالبرج الأسود . . وهى تقع على الشاطىء الشرقى للبحر الميت . . وتحاذى بيت لحم . . والقلعة على

قمة جبل محاط من ثلاث جهات بهوة لايمكن يسبيها تسلق الجبل : :
ولاترى العين قاعها : : وإنما يصل الإنسان إليها عن طريق درب
ضيق وعر : : لايسلكه إلا قلة قادرة عارفة : : ترافق من يطلب
للزيارة : : وعلى زوايا الجبل أقيمت الأبراج الشاهقة : : شديدة
الارتفاع : : ويلف ذلك كله سور ضخم : : فى وسطه القصر المقام
على صفوف من الأعمدة : : وكل عمود . . يتكون من حجر واحد
ولصلابته : . وقوته . . لاتزال آثاره باقية حتى اليوم : : أما داخل
القصر . . فأفخم المتاع وأغلى الرياش . : وحول القصر من الخارج
ثكنات الجند . : ومخازن الذخيرة . : والطعام . : وفى طرف من
أطراف القصر . : حصن كئيب مظلم للحراسة الخارجية : : وبأسفله : :
إلى أبعد العمق : : أعدت إقامة لتكون سجناً وأى سجن : : لمن يريد
الملك أن يسجنه عن قرب منه . . ليشهد بنفسه تعذيبه : : ويكون
قريباً من يديه : : يرى تنفيذ أوامره ضده بعينيه . . وهنا سجن يحيى . :
ولكن قيل للتابعين . . إنه يقيم فى القصر . . وهذا صحيح نظريا . :
فهو داخل تخطيطه : . وقيل لتابعى هيرودس وهيروديا أنه فى سجن
فى أسوأ مكان . : ويقيم على أبشع حال . . وهو الصحيح عملياً . :

وظل يحيى فى سجنه حوالى عشرة أشهر : : حاول فيها هيرودس
مراراً أن يستميل يحيى إلى جانبه تارة بالتهديد . . وأخرى بالوعد : :
والوعيد : : مرة يظهر له الحب الكاذب والحنان المصطنع : : وأخرى
يصيح به بأعنف الكلام وأبشع الألفاظ : : ولكن دون جدوى : :
سمح له بأن يزوره أتباعه : : فرادى ما أمكن . . لعلهم يقنعوه : :

وحرمه منهم . . فترات . . وقيد قدميه . . وأوثق يديه . . ويحيى لايلين . . وما يلقاه إلا ويقول له . . ياهيرودس . . إنك نجس . . تعيش حياة الدنس . . إن الخمر والفسق والرذيلة التى تعيش بها ولها . . لابد ستؤدى بك إلى عقاب الله . . وعذابه . . ولابد سيحل بك غضبه . . يا هيرودس ألا تحس بشىء نحو أخيك السجين . . وهل هذا الشىء هو رغبتك فى امتلاك امرأته . . ياهيرودس إن امرأة أخيك . . لاتكون لك . .

وطرأت فكرة على ذهن هيرودس . . وهل يفكر مثله إلا فى الشر . . كل الشر . . لماذا لايقتل أخاه فيليبس . . فإذا قتله . . بطلت حجة يحيى . . وأصبحت هيروديا بلا زوج . . فيمكنه بذلك أن يتزوجها . . ودائماً الشر عند الشرير . . لايلد إلا شراً أكثر . . والذنب عند العاصى . . لاينتج إلا ذنباً أكبر . . وهكذا قتل هيرودس أخاه فيليبس . . وتم ذلك يقيناً بموافقته إن لم يكن بإيعاز من هيروديا إذ كيف لايهون عليها . . وقد هان على أخيه . . وكيف لايهون عليها قتله . . وقد شاركت فى القبض عليه . . وفى سجنه . .

ودعا هيرودس يحيى مرة أخرى . . ليبلغه نبأ موت فيليبس . . وزوال العقبة التى كانت إحدى ما يعترض بها يحيى على زواجه من هيروديا ولكن يحيى يجيب فى إصرار . . وحزم . . لا . . لاتكون لك هيروديا أبدا . . ليس بالشر يعالج الشر . . وليس بالخطأ يغفر الخطأ . . وليس بالذنب يمحى الذنب . . وعاد يحيى إلى سجنه

ليزاد فى عذابه . . ويضاعف فى إيلامه . . ولكنه يشتد جلده . . ويتعمق إيمانه . . ويكثر صبره . .

وذات أمسية . . طرق باب السجن طارق . . وتقدم السجان نحو الباب . . ليجد سالومى . . الشابة التى تتيه خفة ودلالا . . وتفيض حسناً وجمالا . . إنها زهرة لم تتفتح بعد . . وإن كان هيرودس قد بدأ يعالج أمرها . . ويخطط ليستولى عليها . . واندهش السجان . . ترى ماذا تريد سالومى من السجن . . فسألت عن السجين يحيى . . الذى كثيراً ما دعى إلى القصر . . إنها بحاجة إلى سؤاله . . وسماع أقواله . . وفتح السجان الباب وتنحى عن الطريق . . ودخلت سالومى . . فاذا بها وجهاً لوجه أمام يحيى . . وكأنها لم تره من قبل . . لقد تغيرت فى نظرها الصورة . . ورأت شيئاً جديداً فى نفسها إن النور الذى يلمع فى وجهه بنور الإيمان فى ظلام الليل . . اعتبرته من نور الشباب والفتوة . . وإن عطر النقاء والتقوى الذى يفوح من جسده . . حسبته مظهر القوة . . وبريق العاطفة . . إنها وكأنها لم تره من قبل . . إنه أصبح فى نظرها الشاب الوسيم الذى تتمناه كل فتاة . . وإن وجهه ليضئ كبياض القمر فى ليلة البدر . . وشعره المرسل . . فاحم كالليل الذى اشتدت حلكته . . وإن قوامه لمهيب . . وإن منظره لرهيب . . وتقدمت منه سالومى . . أكثر . . فما راعها . . منه إلا أن قال لها . . ابعدى . . أيتها الشيطانة المفتونة . . والعابثة الملعونة . . وحاولت سالومى . . وأعادت المحاولة . . لإغرائه . . كل وسائل الإغراء . . بذلت . . وكل أسلحتها قدمت

ولكنه يبتعد عنها . . ويقسو عليها . . وعندما صرحت بحبها له . :
واستعدادها لأن تفعل فى سبيله ما يريد . . وتطيعه فى كل ما يشير . .
طلب منها . . أن تتوب إلى الله . . وأن ترجع إلى الله . . وأن تندم
على ما فعلت . . وتعاهد الله . . على ألا تعود إلى خطأ أو معصية . .
طلب منها ألا تشرب الخمر . . وأن تحاربها فى منزلها . . طلب منها
ألا تشترك فى الفسق والفجور . . وأن تدعو أمها إلى الخروج من
قصر الرذيلة . . فهى فى حياة دنسة مع رجل لاتجوز له . . طلب
منها أن تستمع إلى صوت الحق . . إلى صوت الله . . وأن تسير
بخطوات مستقيمة إلى طريق الله . . وأن تبتعد عن الطريق الذى تسير
فيه .. طريق الخطاة والخطايا .. يا سالومى .. إنك فى عنفوان الشباب
وجهك جميل . . وقدك مستقيم . . وشعرك أسود جميل . . فهل
تدبرت أمرك مع حياتك . . بعد كم من السنين . . سيتغير هذا
الحال . . بل أليست الحقيقة أن حالك يتغير يوماً بعد يوم . .
ففى كل يوم يزداد عمرك . . يوماً . . لتقتربين من الموت المحقق
يوماً . . فأين الأجداد والآباء وأين الرسل والأنبياء وأين
القادة والعظماء . . وعندما يتقدم بك العمر . . فتصبحين
وحيدة فى عزلة . . فمن يسأل عنك . . إلا الفقراء والأيتام الذين
تعاونيهم فى شبابك . . وأنت لم تقدمى فى شبابك شيئاً يجعلك مقصد
الناس فيما بعد . . حتى . . لو استقر بك المقام . . وأصبحت زوجة
لرجل . . فقد تلدين بنتاً . . يغازلها زوجك الثانى . . كما يغازلك
هيرودس . . وأمك معك . . ولكن سالومى . . لم تستمع . . ولم

ترتدع : . فتقدمت لتحتضنه وتقبله : : فصرخ فيها : : أيتها الفاجرة : :
هل تلد الفاجرة إلا فاجرة . : وانهزمت سالومى : : وجرح يحيى
كرامتها . . وحطم كبرياءها . . وأذل جمالها وداس على فتنتها
ورفض أنوثتها . .

وتتابعت الأيام . . وفى كل يوم . . ماكان يحدث إلا الصورة
المطابقة لما كان بالأمس : . إلى أن حل يوم ذكرى مولد هيرودس . :
وكان لابد من إقامة احتفال يليق بعظمة ملك : : ضم إلى المملكة : :
ملكاً آخر : : وإن كان ملك أخيه : : وخرج هيرودس فى موكب
رهيب . : ضم الأعيان والوجهاء : : وجمع القادة والعظماء : :
الجنود والمدنيين : . المرتحلين والمقيمين : . والرعايا والوافدين : :
واتجه الموكب بما فيه من خيالة ودواب : : وبمن فيه من زينات
وناس : : من قصر الملك حيث يقيم إلى حيث يطوف بالطرقات
والدروب . : ثم إلى حيث يقف يستعرض الجند : : ويستقبل
المهنئين : : يأخذ الهدايا : : ويقدم العطايا : : ثم عاد إلى القصر : :
ظافراً . . منتشياً : : حيث تقام مأدبة العشاء : : التى لاتتكرر إلا مرة
كل عام . . بمناسبة مولد الملك : : وإنما تتكرر بصورة مصغرة : :
بما تحتويه كل ليلة : : وطوال الليلة : : فيها الأكل من كل الأنواع : :
يقدم بكميات زائدة : : فى أطباق من ذهب : : وخمور تراق وكأنها
الماء : : بل أكثر منه . . فهى تستعمل بديلا عنه : : للشرب والسكر : :
وتدار فى قدور من فضه . .

وأكل هيرودس : . واستمر فى أكله مع كل من حضر : حتى
تخموا : : وشرب وشربوا : . حتى أسرفوا : : ثم عادوا إلى الشرب

حتى ثملوا : : ثم تابعوا الشرب : : فأصبحوا لايستطيعون الحركة : :
ولايقدرون على الفهم : : واختلطت الصيحات المجنونة التى لاتعنى
شيئاً : : وتعالت الضحكات : : من لاشئ : : وبلاشئ : : وتتابعت
الراقصات : : وتغيرت الرقصات . : وينظر هيرودس إلى الراقصات
طويلا : : نظرة بلهاء : : نظرة من لايفهم ولايعى : : ويتمايل معهن :
شمالا ويميناً : : يتحسس هذه : : ويضم تلك . : وهيأ له الخمر : :
أن إحداهن هى سالومى : : فسارع إليها : : ولكنها لم تكن سالومى : :
فقد سارعت الراقصة بإلقاء جسمها بين أحضانه . : إن سالومى
لاتفعل ذلك : : إذا هى ليست سالومى : : ولم يعرف هيرودس أن
هذه الراقصة ليست سالومى إلا بذلك : : ترى كيف لو رقصت
سالومى : : التى يتمناها ويطاردها وهى تتمنع عليه : : وتفر منه : :
وتبتعد دائماً عنه : : إنها لو رقصت لاستطاع أن يغازلها بصراحة : :
وبدون تلميح : : وأن يعانقها ويحتضنها ويتحسسها بدون لوم أو تجريح
وكأن تخيله لسالومى : : قد أفاقه بعض الشيء : : فكرر الطلب من
سالومى لترقص : : وتمنعت سالومى : : لاعفة منها : : فهى تشارك
حياة اللهو والفسق فى القصر:: ولابعدا عن الشبهة فلقد حاولت:: إقامة
حب : : مع يحيى : : ومازالت تسعى إليه : : وترجو وده : : ولكنها
تتمنع دلالا على هيرودس منها : : وإثارة فيه لها : : ودفعاً له إليها :
وكلما أمعنت فى الرفض : . أمعن هو فى الرجاء : : حتى وصل الأمر
به إلى أن عرض عليها أن يقدم لها مقابل رقصها ماتشاء : : وتزايد
عرضه إلى أن وصل به إلى حتى نصف مملكته سيقدمها لها لورقصت: :

وشاركه الجميع فى الطلب والإلحاح : : ووجدت سالومى أن ما يعرضه هيرودس هو عرض سخى . . بل منتهى السخاء . : تطلب ماتشاء : : بلا مراجعة : . أو مناقشة . . وتحيرت سالومى . . فماذا تطلب : ؟ : ومالت على أمها تستعين بها لترشدها إلى ما تطلبه . : وتقترح عليها ما تأخذه . .

ولم تنس هيروديا سبب شقائها . . والحائل دون سعادتها : . يحيى الذى هاجمها . . ومازال . . وحاربها . . وكشف خيانتها . . ولم تجد فيه أى محاولة . . وكل محاولة . . فأوعزت إلى سالومى أن تطلب من هيرودس أن يأتيها برأس يحيى . . على طبق من ذهب . : ووافقت سالومى فوراً . . أليس يحيى الذى أهانها .: وأذل كبرياءها : : ورفض حبها . : إنها بذلك : : سترضى نفسها وترضى أمها . . ويخلو الجو : : كله : : لهم جميعاً : . وتقدمت سالومى من الملك تطلب ذلك شرطاً لرقصها ووافق الملك المخمور الذى لايدرى ما يقول : : ولايعى مما يدور : :

ورقصت سالومى . : فزاد الشر : : وكثرت الخطايا : : وأمر الملك حفاظاً على وعده الذى وعد : : وبراً بقسمه الذى أقسم أن يعطيها ما تطلب : : أن يقتل يحيى فوراً وبسرعة مذبوحاً بالسيف وأن يأتى برأسه على طبق ليكون هذا ختام الاحتفال : : ونهاية الاجتماع : :

ونزل السياف ومعه نفر من الجنود إلى السجن : : فوجدوا اثنين من تلاميذ يحيى : : فى زيارته : . فانتظروا حتى تتم الزيارة ::

لقد سمعوا يحيى وهو يقول لزائريه . . هل قابلتموه . ؟ . . قالوا نعم . . سألهم ماذا قلتم له . . قالوا : قلنا له أن يحيى يقول لك هل أنت هو الآتى الذى ننتظره ؟ أم هناك آخر لم يحن بعد أوان حضوره ؟ وسر يحيى إذ أحسنوا السؤال . . وتابعهم بقوله متلهفاً فماذا كان رده عليكم . ؟ . . قالوا . . رأينا منه عجباً وأى عجب . . لقد شفى كثيرين من المرضى . . بلا دواء . . ومسح على المعتلين فأصبحوا بلا داء . . حتى العمى أبصروا والمقعدين مشوا . . بل إن الموتى قاموا . . ثم قال لنا . . اذهبا وأخبرا يحيى . . بما رأيتما وسمعتما . . فهتف يحيى من فوره . . وقال . . الحمد لك يارب . . هاهم العمى يبصرون . . والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون . . وفى ذلك يقول انجيل لوقا الإصحاح السابع ما نصه :

(فأخبر يوحنا تلاميذه بهذا كله : فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع قائلا أنت هو الآتى أم ننتظر آخر . . فلما جاء إليه الرجلان قالا يوحنا المعمدان قد أرسلنا إليك قائلا أنت هو الآتى أم ننتظر آخر : وفى تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة ووهب البصر لعميان كثيرين : فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما . إن العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون . وطوبى لمن لايعثر فى) .

ونظر يحيى إلى تلميذيه وقال لهما . : اذهبا وقولا له . . الحمد لله

لقد جاء الزمان : : وحل الأوان : : وما دريا ما يقصد : : وما علما ماذا يعني : : وخرج الزائران . . وما عرفا : : أن يحي يعلم أن حينه قد حان : . وأن حياته انتهت فى هذا الأوان : :

ودخل السياف : : وجده : مقيد القدمين بالأغلال : : مكتوف الأيدى بالحبال . . وهوى بسيفه بسرعة على رقبته ففصل رأسه عن جسده : : وحمل الرأس على طبق . . وسارع به إلى حيث الجمع مجتمع : : والشمل ملتئم : : فى انتظار ما طلبته سالومى : .

ودخلت الرأس على الطبق : : أكثر قوة مما كانت على جسد صاحبها : : فنظراتها : : جمدت عليها عينها بالازدراء : : والاحتقار لكل ما حولها : : ووجهه فى صمته وسكونه أقسى منه فى حركته وحياته : : وقدمت الرأس إلى سالومى : : وهذه قدمتها إلى أمها هيروديا : : التى تحرك حقدها الدفين حتى بعد أن مات يحي : : وأخرجت إبرة تغرسها فى لسانه : : كأنها تنتقم مما قاله فيها : : وأعلنه عنها : :

واختلف أمر سالومى : عن أمها : : فلقد اتجهت إلى الطبق تحاول أن تحتضن الرأس : : لتقبل منها وجنات جامدة : : وشفاه صامتة : : وطارت الرأس من الطبق تصرخ قائلة (لايحل لك أن تأخذ امرأة أخيك) : : أما هيرودس فقد وجم : : وصمت : : وسكن : : ولا يعلم إلا الله : : ما أصابه ولا ما اعتمل فى داخله : :

وجاء التلاميذ وحملوا الجسد الطاهر العفيف : : ودفنوه فى القبر : : وبكوا ما شاء الله لهم أن يبكوا . . وانتحبوا قدرما استطاعوا أن ينتحبوا .

ويقول انجيل مرقس فى الإصحاح السادس عن ذلك ما نصه : (لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا امرأة فيليبس أخيه إذ كان قد تزوج بها . لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لايحل أن تكون لك امرأة أخيك . فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر . لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه . وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور . وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس فى مولده . عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل . دخلت إبنة هيروديا ورقصت . فسرت هيرودس والمتكئين معه . فقال الملك للصبية مهما أردت أطلبي منى فأعطيك . وأقسم لها أن مهما طلبت منى لأعطيتك حتى نصف مملكتى . فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلب : فقالت رأس يوحنا المعمدان . فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة أريد أن تعطينى حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق . فحزن الملك جداً . ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها : فللوقت أرسل الملك سيافاً وأمر أن يؤتى برأسه . فمضى وقطع رأسه فى السجن . وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها : ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها فى قبر) :

وذهب التلاميذ إلى هذا الذى كان يرسلهم إليه يحيى : : وكان يرسلهم . . إلى عيسى . .

ولايمكن للإنسان أن يتخيل بحق ما حدث لتلاميذ يحيى : :
ولالأتباعه ومريديه والسالكين معه فى طريق التوبة والندم والاستغفار
فى طريق الحق . . قول الحق . . والتعامل مع الناس بالحق . . وبذل
كل ما يفيض عن حاجة الإنسان إلى أخيه الذى يحتاج إليه : : بل
أن يقتسم الإنسان ما عنده مع غيره . . ولايستطيع الإنسان أن يقدر
ولو بقليل من الدقة . . قدر ما أصاب الشعب كله الذى تابع يحيى : :
سمع منه . . أو أخذ عنه . . أو تتلمذ على يديه أو اقتدى به . . فلقد
أرسى لهم بالقول والفعل قواعد علاقة الإنسان مع أخيه وعلاقتهم
جميعاً مع الله . . سبحانه وتعالى . .

فياترى هل يعود هذا الشعب وقد اهتدى : : إلى الضلال مرة
أخرى . . إلى حيث كان قبل أن يرسل الله لهم يحيى . . إن الله جل
شأنه : : وسمت حكمته وعظمت مشيئته : : قد أعد من يكمل
الرسالة : . ويتابع الهداية . . فلقد كان سيدنا عيسى عليه الصلاة
والسلام على صلة : . كل الصلة . . بسيدنا يحيى : : عليه الصلاة
والسلام فما أن قدم إليه بعض تلاميذ يحيى . . ورسله إليه واجتمعوا
به . : وأبلغوه بكل الأمر . . ماكان من يحيى . . وما أصبح عليه
حيث استشهد فى سبيل الحق . . وذبح ودفن . . حتى وجد فيهم
ضياعاً وأى ضياع . : وأحس فيهم الشرور . . وأى شرور : :
والتعلق كل التعلق : : وإذا كان هذا هو أمر التلاميذ . . والمقربين : :
فكيف بباقى القوم : : وعامة الشعب . . وكان لابد أن يتابعهم
عيسى . : ويحافظ على إيمانهم . : ويساير تحركهم . : الذى بدأوه

بالهداية على يد سيدنا يحيى : فما أن رأى عيسى . أنهم أصبحوا ولا راعى لهم . وأنهم فى شرودهم كأنهم الخراف التى لاراعى لها : حتى بدأ يعلمهم . أى يقف منهم موقف يحيى الذى كان منهم موقف المعلم للتلاميذ : وفى ذلك يقول انجيل مرقس الإصحاح السادس بالنص :

(واجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكل شىء كل ما فعلوا وكل ما علموا : فقال لهم تعالوا أنتم منفردين إلى موقع خلاء واستريحوا قليلا . لأن القادمين والذاهبين كانوا كثيرين . ولم تتيسر لهم فرصة للأكل : فمضوا فى السفينة إلى موضع خلاء منفردين . فرآهم الجموع منطلقين وعرفه كثيرون فتراكضوا إلى هناك من جميع المدن مشاة وسبقوهم واجتمعوا إليه : فلما خرج يسوع رأى جمعاً كثيراً فتحنن عليهم إذ كانوا كخراف لاراعى لها فابتدأ يعلمهم كثيراً) :

وبدأ تحرك سيدنا عيسى . يأخذ شكلا جديداً : حركة الدعاة : وشكل المرسلين : فتوجه بادىء ذى بدء إلى حيث كان يحيى يبشر ويهدى ويعلم ويدعو . وكأنه أراد أن يبدأ دعوته من حيث بدأ يحيى دعوته : وأن يتحرك بحركة واسعة : تعتبر بدايتها من الجليل حيث كان يحيى : ولذلك فان انجيل مرقس يقول فى إصحاحه الأول ما نصه :

(وبعد أن أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله : ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله : فتوبوا وآمنوا بالإنجيل) :

وهكذا مات يحيى . . وقام عيسى . .

أما ما كان من أمر القصر الدنس . . ومن فيه من أنجاس . .
فان ارتياس ملك العرب وقتذاك وكان هو والد زوجة هيرودس
عندما بلغه خبر طلاق ابنته . . فلقد سار على رأس جيش أحسن
إعداده . . واكتمل عتاده . . وذهب وقاتل هيرودس وجنده . .
الذين قد أضعفهم كثرة الأكل وإدمان الشراب . . فهزموا شر هزيمة
على يد العرب . . وتمكن هيرودس وهيروديا من الفرار بعد أن احتل
العرب ملكهم . . واتجهوا إلى ليون بفرنسا حيث هلكا . . فقراً
وبؤساً وشقاء . .

أما سالومى . فلقد تضاربت الآراء حولها . . فمن قائل أنها وقعت
فى الأسر فانتحرت . . وقول آخر يقرر أنها ظلت أسيرة تعامل كالعبيد
حتى ماتت غماً وكمداً . . ومن قائل إنها تمكنت من الفرار ولكنها
أصيبت بلوثة . . جزاء ما تبدل من حالها . . وما اختلف من
أمرها . . عاشت بها . . وماتت بسببها . . ويقول آخرون إنها
هامت فى البرارى والقفار . . حتى هلكت جوعاً وعطشاً . . وأيا كان
القول . . ومهما كان الأمر . . فلقد طابق ما وقع لهم جميعاً ما يقرره
القرآن الكريم بالنص الشريف :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ .

(٢١ - ٢٢ سورة آل عمران)

بين
يحيى .. وعيسى

ان معجـــزة ولادتهما عليهما السـلام متقاربة ٠٠ اذ ولـدا لا كما يولد الناس ٠فيحيى ولد من ام غير صالحة للانجاب ومن أب غير قـادر عليـه ٠ وعيسى من أم صـــالحة للانجـاب ولــكن بغـــير أب ٠

يتقارب يحيي وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى العمر : تقارباً كبيراً : . بل كأنهما يتطابقان .. إذ هما فى سن واحدة وعمر واحد . . فالفارق بينهما هو خمسة أشهر فقط : . فلقد حملت العذراء مريم بعيسى بأمر الله وبدون رجل : بعد أن حملت الياصابات بيحيي بهذه الشهور الخمسة وذلك بنص انجيل لوقا فى الإصحاح الأول الذي يقول . :

(وبعد تلك الأيام حبلت الياصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة . هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر إلى لينزع عارى بين الناس . . وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة . إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم : فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك ، مباركة أنت فى النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية . فقال لها الملاك لاتخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع)؛

وهكذا ولدا يحيي وعيسى فى جيل واحد . . بل وفى عام واحد : وميلادهما.. أيضاً.. معجزة وأى معجزة : إذ ولدا بظروف تخالف ميلاد الآخرين .. الذين يولدون تحت ظروف عادية.. فلقد ولد عيسى عليه الصلاة والسلام من مريم دون أن يمسسها رجل فهو بذلك ولد من أم بلا أب .. وفى ذلك يقول انجيل متى فى الإصحاح الأول بالنص :

(أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا . لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس . فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً : ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا يايوسف بن داود لاتخف أن تأخذ مريم امرأتك . لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس . فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع) .

وولد يحيى عليه الصلاة والسلام من أم عاقر لاتلد . . ومن رجل لايصلح للإنجاب . . وهما رغماً عن ذلك مما يعيق ولادتهما . . فلقد كانا شيخين عجوزين تقدمت بهما الأيام . . فولدهما إذا . . وهما على هذه الحال معجزة . . وأى معجزة . . وذلك بنص ماجاء فى انجيل لوقا الإصحاح الأول الذى يقول :

(كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة إبيا وامرأته من بنات هرون واسمها الياصابات . وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم . ولم يكن لهما ولد إذ كانت الياصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما : فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله : حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر . وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور . فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف : فقال له الملاك لاتخف يازكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك الياصابات ستلد لك وتسميه يوحنا) .

.. وهكذا يتقاربان فى معجزة ولادتهما .. حيث ولدا .. لا كما يولد الناس .. فأحدهما وهو عيسى ولد من أم صالحة للإنجاب ولكن بغير أب .. والثانى وهو يحيى ولد من أم غير صالحة للإنجاب ومن أب غير قادر عليه .. فكان مولد كل منهما معجزة .. متقاربة الأسلوب .. ومتشابهة الاتجاه .. وحتى فى نشأتهما الأولى .. وفى أيامها فيما بعد الميلاد فلقد تشابها وتقاربا. فيما كان يعيشان به ومن أجله .. بل إن انجيل لوقا فى اصحاحه الأول يقول عن نشأة يحيى الأولى ما نصه :

(أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل) .

ويقول نفس الانجيل فى إصحاحه الثانى عن نشأة عيسى الأولى مانصه :

(وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه) .

وهكذا يؤكد الإنجيل أن نشأة كل من يحيى وعيسى كانت نشأة متقاربة بل واحدة .. فكان كل منهما .. ينمو .. ويتقوى بالروح ..

أما لقاء يحيى وعيسى .. فاذا كانت أرواحهما قد تلاقت فى عالم ما قبل الحياة البشرية أى فى عالم الذر شأنهما فى ذلك شأن أرواح كل الخلق .. فلقد تلاقت أرواحهما مرة أخرى قبل مولدهما أى وهما فى الرحم .. كل فى رحم أمه .. وتعارفا وهما على هذه الحالة .. وفى هذا المكان .. وحدث بينهما مالم يحدث مع غيرهما ..

ولاما حدث لأى منهما مع غيره . . إذ تحرك يحيى فى بطن أمه : بمجرد دخول عيسى وهو فى بطن أمه . . وكأنه يريد أن يعانقه . . أو يتعجل الزمن ليلاقيه : فتحرك الجسد تحت ضغط الروح وإلحاحها . . وحلت على يحيى الروح القدس . . وحيث فاضت على أمه الياصابات . . فعرفت أن مريم تحمل رسولا من الله . . وفى ذلك يقول انجيل لوقا فى الإصحاح الأول ما نصه :

(فقامت مريم فى تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا . ودخلت بيت زكريا وسلمت على الياصابات . فلما سمعت اليصابات سلام مريم ارتكض الجنين فى بطنها وامتلأت الياصابات من الروح القدس . وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة أنت فى النساء ومباركة هى ثمرة بطنك . فمن أين لى هذا أن تأتى أم ربى إلى . فهو ذا حين صار صوت سلامك فى أذنى ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى) .

وبدأ يحيى رسالته بالدعوة إلى التوبة . . مطالباً قومه بها . . منذراً باقتراب الملكوت السموات وذلك بنص انجيل متى فى الإصحاح الثالث الذى يقول :

(وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية . قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) .

وهذا هو ما بدأ به عيسى رسالته . . الدعوة إلى التوبة منذراً باقتراب ملكوت السموات . . بل لقد أورد الإنجيل نفس الألفاظ التى أوردها عن يحيى وذلك بنص ماجاء فى انجيل متى نفسه الإصحاح الرابع إذ يقول :

(من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) .

وكلاهما عمد قومه . . ولأن يحيي بدأ الدعوة سابقاً عيسى عليهما الصلاة والسلام فلقد اعتمد عيسى من يحيي . . وبالرغم من أن يحيي لأنه نبي الله ورسوله وأوحى إليه أن عيسى هو نبى الله ورسوله اللاحق له . . فهو علم ذلك وعرفه . . إلا أنه تمنع أولا أن يعمده . . ثم عمده فعلا . . كما عمد القوم من قبله ومن بعده وفى ذلك يقول انجيل متى الإصحاح الثالث ما نصه :

(حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه . ولكن يوحنا منعه قائلا أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلى فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر حينئذ سمح له) .

ولقد تطابقت دعوتهما . . وتشابهت خطواتهما . . وتقاربت أساليبهما . . بل تكررت ألفاظهما . . حتى أنه اختلط شأنهما على الناس . . واشتبه أمرهما عليهم . . حتى أنه بعد أن مات يحيي وقتله هيرودس . . وقام عيسى فوراً بحمل أعباء الرسالة . . واستكمل أمر الدعوة . . والسير بها بين الناس وذلك بنص ماجاء فى انجيل مرقس الإصحاح الأول الذى يقول :

(وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل) .

فان الكثرة من الناس اعتقدت أن الداعى . . ليس بداعية جديد . . إنما هو يحيي . . ولقد قام بعد موته . . وهذا ما اعتقده

هيرودس الملك نفسه عندما وصلته أنباء دعوة عيسى واشتهر بين الناس وذلك بنص ماجاء فى انجيل مرقس الإصحاح السادس الذى يقول :

(فسمع هيرودس الملك : لأن اسمه صار مشهوراً . وقال إن يوحنا المعمدان قام من الأموات ولذلك تعمل به القوات : قال آخرون إنه إيليا . وقال آخرون إنه نبى أوكأحد الأنبياء . ولكن لما سمع هيرودس قال هذا هو يوحنا الذى قطعت أنا رأسه . إنه قام من الأموات) . .

وهذا ما يؤكد اختلاط أمرهما . . على الناس . . وما ذلك ألا لتطابق . . وتشابه . وتماثل دعوتهما . . ولم يكن يعرف حقيقة أمر عيسى إلا قلة نادرة . . فعندما سار مع تلاميذه سألهم من يقول الناس أنه هو . . فبعضهم قال إنهم يقولون إنه إيليا وآخرون يقولون إنه نبى من الأنبياء . . ولكن الكثرة تعتقد أنه يحيى . . ولم يكن يعرف حقيقته إلاواحد من تلاميذه فقط أما باقى تلاميذه فلايعرفون من هو فقد ارتبج الأمر عليهم . . وفى ذلك يقول انجيل مرقس الإصحاح الثامن ما نصه : . .

(ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيليبس . وفى الطريق سأل تلاميذه قائلا لهم من يقول الناس إنى أنا . فأجابوا يوحنا المعمدان . وآخرون إيليا . وآخرون واحد من الأنبياء : فقال لهم وأنتم من تقولون إنى أنا . فأجاب بطرس وقال له أنت المسيح : فانتهرهم كى لايقولوا لأحد عنه) .

بل إنه عندما سألوه وقد رأوا معجزاته . . وشاهدوا خوارق أفعاله . . كيف يفعل ذلك . . فانه أرجع الأمر إلى ما كان من السماء على

يد يحيى بمعموديته له . : وفى ذلك يقول انجيل مرقس الإصحاح الحادى عشر ما نصه :

(وجاءوا أيضاً إلى أورشليم . وفيما هو يمشى فى الهيكل أقبل إليه رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ . : وقالوا له بأى سلطان تفعل هذا ومن أعطاك هذا السلطان حتى تفعل هذا . فأجاب يسوع وقال لهم وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة : أجيبونى فأقول لكم بأى سلطان أفعل هذا . معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس أجيبونى : ففكروا فى أنفسهم قائلين إن قلنا من السماء يقول فلماذا لم تؤمنوا به . وإن قلنا من الناس فخافوا الشعب : لأن يوحنا كان عند الجميع أنه بالحقيقة نبى) .

ولقد كان التشابه بين حياتى يحيى وعيسى كاملا وشاملا وتاماً : : وقامت دراسات واسعة وعميقة عن هذا التشابه ووضع عنها العديد من الكتب . . ونشرت فيها الكثير من الدراسات فمنها على سبيل المثال ماكتبه الكاتب ف. ب. ماير وترجمه القس مرقس داود تحت عنوان (يوحنا المعمدان) وجاء فيه ما نصه فى الصفحة رقم ٢٣٤ :

(كانت هنا لك أوجه شبه كثيرة بين حياة كل منهما : فالنهران نبعا من نبع واحد فى واد هادىء بين جبال اليهودية ، رقدا فى بحيرات عميقة فى أيامها الأولى أفارا بقوة فى تيار شديد عندما حان زمانهما ورويا نفس المكان فى الأميال القليلة الأولى .

من المستحيل أن نذكر عدداً وفيراً من الحقائق التى اشترك فيها هذان الزميلان : فقد أعلن عن ميلادهما وتنبىء عن خدمتهما فى ظروف خاصة : : كانت مريم عذراء وكانت أليصابات قد تجاوزت السن . : وجاء إلى كل منهما ملاك الرب . كان يبدو للعين المجردة

أن يوحنا هو الأقوى والأقدر : : ولكن يسوع تتبعه عن قرب واتخذ رسالة مماثلة عندما أمر الشعب أن يتوبوا ويؤمنوا بالإنجيل : :

كانا متماثلين فى أنهما لم يدخلا مدارس الأنبياء ولم يندمجا فى أى حزب من أحزاب اليهود الكبيرة . ولم يتتلمذ أى واحد منهما على هليل أو شماس. لم يتخذ أية وظائف كنسية . . ووقفا بعبدين عن الفريسيين والصدوقيين والهيروديسين والأسينيين : : لقد لفتا الأنظار بجاذبية مماثلة :: والتفت حولهما الجموع بكيفية مماثلة :: ووبخا الشعب على نفس الخطايا . : وإذ رفعا نفس العلم دعا كل منهما الناس لترك الشكليات والرياء واتباع البر والحقيقة :: وقوبل كل منهما بحقد القادة الروحيين فى أمتهما) ::

والدارس لحياة يحيى عليه الصلاة والسلام يجد أنه قد تحمل أقصى ما يمكن أن يتحمله البشر منذ ولادته : : فلقد خدم السا لكين . . وباشر أمور المتعبدين منذ أن استطاع أن يدب على الأرض بقدميه .وعند ما كان ابن عامين فقط :: طلب ليقتل : . وخرجت أمه به : :وقتل أبوه بسببه : وعاش يتيم الأب حتى سن ست سنوات . وماتت أمه : ويصبح يتيم الإثنين الأم والأب .: ويكون يتمه وهو فى الجبال والصحارى :: وحيداً فى البشر :: إلاأنه مع الله :: ظاهراً وباطناً :: ويظل على إخلاصه لله :: ودعوته لدينه :: يعيش عيشة الزهد الشامل . والشظف الكامل : ويحيا حياة التنسك الحقة . . والعبادة الصادقة . :

وبعد أن يجد الاستجابة قد ظهرت فى نفوس بعض الضالين: : ويرى بعينيه سلوك الناس فى الدين . : ويتكاثر مولد التائبين : : ويتدفق سيل المعمدين :: يؤخذ ليمتحن بأقطع امتحان : : إما الاستجابة لخطأ الحاكم : : وتبرير سلوكه . . أو حتى التغاضى عن ذنبه وعدم بيان الحق فى شأنه : : وإما سجنه وتعذيبه : . وحبسه وتقييده : : واختار الحق بكل ما يحمل إليه من تعذيب وإرهاب . .

ثم يتعرض لأقسى ما يبتلى به الإنسان : . تنفرد به سالومى : :
وهى شابه تتفتح كأروع ما تتفتح الشابات . : نضارة وحسناً وجمالا ::
مع التيه والدلال . : ثم تداعبه وتلاعبه : : بل وتغازله وتحاول أن
تعانقه . : وهى :: فى موقعها .. حاكمة بأمرها :: حرة فى شأنها :: كأن
بيدها الأمر : : أمر القصر وما يحتويه . . والسجن وما فيه : : ولكنه
وهو الشاب التقى الزاهد المتبتل . . نبى الله . : ورسوله : :
يصبر ولا يستجيب : . ويشتد ولايلين . . تحدى الملك . : وأهان
زوجة الملك : : وحطم شابة هى بنت من كان ملكاً . : وأصبحت بنت
محظية ملك : : بل وهى فى الوقت نفسه : : عشيقة ملك : : وما خشى
وماخاف : بل ثبت على الحق : .. وتمسك بالصدق : : وما اتجه
لغير الله : . وما دعا غير الله : :

وما أعظم ما شهد له . . وما أروع الشهادات التى قيلت فيه : :
ونعم من شهدوا له : :

فلقد شهد له جبريل الأمين : . أمين وحى الله : : وملاكه الذى
يرسله للرسل والأنبياء . : ووردت شهادته بنص ماجاء فى انجيل
لوقا الإصحاح الأول حيث يقول عن سيدنا زكريا :

(فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله . حسب عادة الكهنوت
أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر : وكان كل جمهور
الشعب يصلون خارجاً وقت البخور . فظهر له ملاك الرب واقفاً
عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف :
فقال له الملاك لاتخف يازكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك

اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا . ويكون لك فرح وابتهاج. وكثيرون سيفرحون بولادته : لأنه سيكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لايشرب : ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس : ويرد كثيرين من بنى اسرائيل إلى الرب الاههم) :

وفعلا فان يحي كان وسيكون عظيماً أمام الرب . : وعظمته ناتجة عن أنه نبي الله ورسوله الذى استجاب لدعوته : : وحافظ على حكمته . . وجاهد فى سبيل دينه . . وفعلا . : ما شرب خمراً ولامسكراً . : بل ما أكل حتى شبع . . وما أكل إلا من أطهر الطعام وأنظفه . : ما أرسله الله له . : من عسل نحل مكرر : : لحم طير مطهر : :

وحقاً . : فانه وهو مازال فى بطن أمه . . حفظه الله . . وأوحى له وامتلأ مما أرسله الله له من الروح القدس . :

وصدقا . . فان بجهاده تعلم الجاهلون : . وبهديه اهتدى الضالون ::

وشهد له والده زكريا . : وقد كان هو أيضاً نبي الله ورسوله . : فلقد امتلأ من الروح القدس بنص ماجاء فى انجيل لوقا الإصحاح الأول الذى يقول :

(وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا : مبارك الرب إله اسرائيل لأنه افتقد وضع نداء لشعبه) . :

وأما شهاداته ليحيي فقد قال عنها انجيل لوقا فى الإصحاح الأول ما نصه :

(وأنت أيها الصبي نبي العلى تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب

لتعد طرقه . لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم . بأحشاء رحمة الهنا التى بها افتقدنا المشرق من العلاء : ليضىء على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت لكى يهدى أقدامنا فى طريق السلام . أما الصبى فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل) .

أما شهادة عيسى ليحيى فان انجيل لوقا الإصحاح السابع قد جاء بنصها الذى يقول :

(فلما مضى رسولا يوحنا ابتدأ يقول للجموع عن يوحنا : ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا أقصبة تحركها الريح . بل ماذا خرجتم لتنظروا انساناً لابساً ثياباً ناعمة . هو ذا الذين فى اللباس الفاخر والتنعم هم فى قصور الملوك . بل ماذا خرجتم لتنظروا . أنبياً . نعم أقول لكم وأفضل من نبى) :

وهكذا قرر سيدنا عيسى ثبات يحيى عليهما الصلاة والسلام : ثباتاً أكيداً وتاماً . . أمام كافة الأهوال والأحداث . . فهو ليس كريشة فى مهب الرياح . . أو قصبة تميل حيث توجه الأهواء . . إنه وقف أمام كل الرغبات والأهواء . . والعواصف والأنواء . . لايلين ولاينحنى وقاوم كل التيارات والنزعات . . والرغبات . . كما قرر بساطته المتناهية . . فهو لم يلبس الثياب الناعمة . . وكان فى استطاعته أن يفعل ذلك . . كهؤلاء الذين يرتدون أفخر اللباس والنعمة لأنهم فى خدمة الباطل . . ولذلك فهم فى قصور الملوك . . إنه نبى . . بل وأفضل من نبى لأنه نبى من الصابرين . .

من المجاهدين :. تحمل منذ طفولته حتى مماته .. لذلك يقول عنه أنه أفضل من نبي .. من الأنبياء العاديين ::

هذا .. هو يحيى .. بادىء الديانة الجديدة لشعبه .. ورائد الدعوة الحديثة لقومه .. والتي جاء عيسى ليكملها حيث بدأت وظهرت :. حيث يقول بنص ماجاء في انجيل متى الإصحاح الخامس ::

(لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ماجئت لانقض بل لأكمل) . ..

واعترافاً بقيمة يحيى .. وتقديراً لأهميته .. وإظهاراً لحقيقة مكانته .. فان عيسى قال عنه بنص ماجاء في انجيل لوقا الإصحاح السابع :

(لأنى أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان) :

وأما القول الفصل :. فان القرآن الكريم قدأورده في لفظين اثنين كريمين .. لفظين تضمنا كل مايمكن للعقل أن يستوعبه من كريم الخلق وسامى السجايا .: وعالى الصفات :: وأغلى الشهادات السيادة .. السيادة في كل أمر :: ومن كل وجه :: ولكل شأن .: والعفة :: العفة المتناهية :: المطلقة :: إنه سيد :: وحصور .: وأنه نبي ومن الصالحين :: إذتقول عنه الآيات الشريفة :

«هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ» .

(٣٨ - ٣٩ سورة آل عمران)

ماقبل يحيى..
ومابعد عيسى

ان الايمان بالله ، وبما انزل
على الانبياء والرسل..
يستلزمه يقينا الا
يفرق الانسان بين هؤلاء
الرسل والانبياء .

يقول ف. ب. ماير أحد كتاب المسيحية فى كتابه (يوحنا المعمدان) مانصه :

(إن المعمدان خليق بالتقدير والإعجاب من كل البشرية كحلقة الاتصال بين العهد القديم والعهد الجديد . فهو الذى ختم الأول وافتتح الثانى) .

وإذا كان سابقاً عيسى . فى دعوته . فهو لاحق لغيره فى ديانته . فما هو إلا حلقة فى سلسلة من الرسل والأنبياء تبدأ من أول من كلمه الله بوحى منه . إذ أمره بما يجب عليه أن يقوم به . ونهاه عما يجب أن ينتهى عنه ... وتنتهى عند خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين الذى انتهت عنده الرسالات وختمت به النبوات حين أوحى الله سبحانه وتعالى إليه . كما أوحى للرسل والنبيين من قبله . ولكن ما أوحى الله جل شأنه به له هو مالا كلام غيره . ولاحديث فوقه . ولاوحى بعده .

ولاجدال أو شك . فى أن كثرة من الرسل والنبيين كانوا قبل عيسى . منهم يحيى نفسه الذى كان أيضاً قبله كثرة بالغة . مذكورة فى الكتب المتداولة من العهد القديم . أى عهد ما قبل يحيى وعيسى . كما أن العهد الجديد الذى جاء به عيسى قد قرر ذلك صراحة إذ يقول انجيل متى فى الإصحاح الخامس ما نصه :

(لاتظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء) :
وهكذا يعترف سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بأن قبله أنبياء كثيرين . . ولقد ورد ذكر بعضهم فى كتب العهدين القديم والجديد من أول آدم إلى نوح وابراهيم ويعقوب وموسى وزكريا ويحيى حتى عيسى الذى نزل عليه الإنجيل . .

وأما ما بعد عيسى فقد تنبأت نفس الكتب . . كتب العهد القديم والجديد به . . لذلك فان الدارسين لهذه الكتب كانوا يبشرون بمقدمه . ويتحدثون عن قرب ظهوره . . فآمنوا بمحمد بمجرد اعلانه لدعوته إذ طابق أوصافه ماجاء فى كتبهم . .

ففى التوراة نجد فى سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر النص :
(أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) .

والكلام من الله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عن بنى اسرائيل وهم بنو اسحاق . . وإسحاق هو أخو اسماعيل . . فاخوان بنى اسرائيل هم بنو اسماعيل . . وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من بنى اسماعيل . . ولاغيره ينطبق عليه . . إذ لاينطبق على سيدنا عيسى . . ويقرر نص التوراة كذلك أن صفة النبى المرتقب تكون كصفة سيدنا موسى . . وهذا القول ينطبق على سيدنا محمد . . فهو مثله ولد من أب وأم . . وتزوج وأنجب ذرية . . ولاينطبق على سيدنا عيسى . . لأنه ولد بلا أب . . ولم يتزوج . . ولم ينجب . . فالمقصود يقيناً ليس عيسى . . وإنما

محمد : : وأيضاً فلقد أتى محمد عليه الصلاة والسلام بشريعة كموسى وكذلك أنا اجعل كلامى فى فمه : : أى يكون النبى أمياً ﷺ لايقرأ أو يكتب إنما يوحى الله سبحانه وتعالى إليه فينطق بما يوحى إليه : : وهذا يطابق سيدنا محمدا . . ولايطابق غيره . .

وفى الإصحاح الثانى والثلاثين نجد النص الآتى :

(هم أغارونى بما ليس إلهاً : أغاظونى بأباطيلهم : فأنا أغيرهم بما ليس شعباً بأمة غبية أغيظهم) .

والعرب لم يكونوا شعباً بمعنى الانتظام . . منذ الأزل وحتى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . وكانت أمتهم قبل الإسلام فى غاية من الجهل والضلال . . هذا ما أوردته كافة الدراسات والسير : : وهذا ما قرره التاريخ المكتوب والمدون . . والمتداول فى كل مكان : :

وفى الإصحاح الثالث والثلاثين نجد النص الآتى :

(وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم) :

وهذا النص يقرر صراحة النبوءة بأديان ثلاثة فعلى جبل الطور بسيناء نزل دين . . أليس هو الدين الذى جاء به موسى . . حيث نزلت عليه التوراة على جبل الطور بسيناء . . أما سعير فهى مدينة على بعد كيلو ونصف من مدينة بيت لحم وتسمى حالياً (بيت ساجد) أى مدينة الرعاة : : وفى هذه المدينة بالذات ظهرت الملائكة للرعاة

يبشرون بمولد المسيح وبها كنيسة محفورة فى الصخور تحت الأرض وتسمى كنيسة الرعاة . . أليست تلك نبوءة بالديانة المسيحية . . وبشرى بالنبي والرسول عيسى . . وأما فاران فهى برية بين ثلاثة جبال بمكة هى أبوقبيس وقعيقعان وجبل حراء . . ولقد ورد فى التوراة فى سفر التكوين الإصحاح الحادى والعشرين أن إبراهيم أسكن ولده برية فاران . . والمعروف المؤكد الذى لاجدال فيه أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسكن ولده مكة . . وبجوار الكعبة الشريفة . . ويكون نص التوراة يبشر بدين جديد . . ينزل وحيه فى مكة بل عند الكعبة . . فهل يختلف اثنان فى أن هذا الدين الجديد الذى ينزل وحيه عند الكعبة هو الدين الإسلامى . . وأن رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم هو المقصود بهذا النص :

وفى سفر أشعيا الإصحاح الثانى نجد النص :

(ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال . وتجرى إليه كل الأمم . وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إلٓه يعقوب) :

ولاينطبق هذا القول . . إلا على الحج فى الإسلام . . فهو المنسك الذى يسعى فيه الناس فوق التلال . . وتجرى إليه الأمم من مختلف أنحاء العالم . . وتسير إليه الشعوب المختلفة الكثيرة ويصعدون إلى الجبال متوجهين إلى بيت الله الحرام . . إذ يصعد المسلمون إلى جبل عرفات ويطوفون بالكعبة الشريفة . . بيت إلٓه يعقوب . .

وفى الإصحاح الواحد والعشرين نجد النص :

(لأنه هكذا قال لى السيد.اذهب أقم الحارس . ليخبر بما يرى :
فرأى ركاباً أزواج فرسان . ركاب حمير . ركاب جمال :
فأجاب وقال : سقطت . . سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوته كسرها إلى الأرض) .

وهذه نبوءة بالأديان الثلاثة . فراكب الفرس هو سيدنا موسى :
وراكب الحمير هو سيدنا عيسى .. الذى عرف أنه كان يتنقل بها . :
ونصت على ذلك الأناجيل . . أما راكب الجمل فهو سيدنا محمد
وناقته القصواء مشهورة فى التاريخ مذكورة فى كل كتب الدراسات
والسير . وبالتأمل فى النص نجده يختص بسيدنا محمد إذ أنه هو الذى
حطم تماثيل الآلهة عندما دخل الكعبة وكسر ما فيها من أصنام كانت
عبارة عن تماثيل للآلهة منحوتة . . كما جاء فى النص تماماً . :

وفى نفس الإصحاح نجد النص :

(وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين
ياقوافل الددانيين : هاتوا ماء لملاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء
وافوا الهارب بخبزه : فانهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف
المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب) :

ولم تحدث هجرة فى الوعر من بلاد العرب وبات فيها المهاجرون
فى هذا الوعر يطلبون الماء والخبز وفارين من أمام السيوف إلا هجرة
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى فر بعد اتفاق قريش على قتله :

وأعدوا سيوفهم وذهبوا فعلا لقتله . : فهاجر فى الوعر فى الجبال والصحارى : : من مكة إلى المدينة . . ومعه صاحبه أبوبكر :

وفى الإصحاح الثانى والأربعين نجد النص :

(غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض . أيها المنحدرون فى البحر وملؤه والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر) .

والأغنية الجديدة للرب . . هى ديانة جديدة لاشك . . أما مكان هذه الديانة الجديدة . . فمن الديار التى سكنها قيدار . . وقيدار حسبما جاء فى سفر التكوين الإصحاح الخامس والعشرين هو ابن اسماعيل . . بن ابراهيم : . وهذا الابن هو الذى أسكنه أبوه ابراهيم فى مكة عند الكعبة .: وأما سالع فهى جهة معروفة فى المدينة المنورة .. وجبل سالع بأطراف المدينة من ناحية الشمال . . والتسبيح هو مما يحرص عليه المسلمون دائماً وأبدا . . لاسيما وهم يهتفون فى مناسك الحج . . وهذا لاشك يطابق الإسلام . . وينطبق على نبى الإسلام . : ولايطابق غيره . . ولاينطبق على سواه . . اطلاقاً . .

وفى الإصحاح الستين نجد النص :

(ارفعى عينيك حواليك وانظرى . قد اجتمعوا كلهم : جاءوا إليك . يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتى إليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة

كلها تأتى من شبا . تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب . كل غنم قدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى) .

ولاتحدث ذلك فى غير مكة . . اطلاقاً . . ولايفعل ذلك غير المسلمين أبدا . . ولايقع ذلك فى أية ديانة غير الإسلام . . فمكة هى التى يجتمع الكل عندها ويردون إليها من كل فج عميق . . والقادمون إليها للحج يسوقون الأغنام والكباش ليذبحوها . . وقيدار وهو ابن اسماعيل إنما ليحدد تماما المكان المقصود . . مكة المكرمة . . والكعبة الشريفة . .

وأما فى الأناجيل فنجد أيضاً البشارات والنبوءات بالإسلام دين الإسلام . . فنجد فى انجيل يوحنا الإصحاح الأول النص :

(وهذه هى شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت.فاعترف وله ينكر وأقر أنى لست أنا المسيح. فسألوه إذ ماذا . إيليا أنت ؟. فقال لست أنا . النبى أنت؟.فأجاب لا : فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى)

أى يقطع النص أنه بعد المسيح سيكون النبى المنتظر المرتقب الذى لاخلاف عليه ولاجدال عنه . . ولاشبهة فيه . . لذلك قالوا النبى . . . بالتعريف ولم يقولوا نبى . . وهكذا . . يتقرر أن بعد عيسى . . ننتظر النبى . . المرتقب الذى لاخلاف عليه . . ولا جدال حوله . . وإنه نهاية المطاف فى طريق الرسل والنبيين ونجد النص الآتى فى الإصحاح الرابع عشر :

(إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لايستطيع العالم أن يقبله لأنه لايراه ولايعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم) .

وهذه بشارة واضحة وصريحة بأنه سيكون هناك معز آخر . . هو الأخير الذى سيمكث إلى الأبد . . والمعزى هو النبي والرسول . . وذلك بنص ماجاء فى سفر أشعيا الإصحاح الواحد والخمسون إذ يقول :

(أنا أنا هو معزيكم) .

النص يؤكد أن هناك الرسول والنبي . . الذى سيكون خاتم الرسل والنبيين لأنه ماكث إلى الأبد فلا نبي أو رسولا بعده . . وسيأتى بالحق . . وسيجهله بعض العالم . . لأنه طبعاً بلغة غير لغتهم وهو القرآن الكريم . . أما هؤلاء الذين سينزل بينهم ويعرفون لغته فيعرفونه . .

وأما موعد هذا الرسول والنبي . . الأخير فسيكون بعد موت عيسى وانتهاء أيامه وذلك بنص ماجاء فى الإصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا الذى يقول :

(لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق . لأنه إن لم انطلق لايأتيكم المعزى)

كلام قاطع وواضح وصريح . . بعد عيسى . سيأتى الرسول والنبي الأخير . . الذى لارسول ولا نبى بعده . . وقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. وها قد مرت عشرات المئات من السنين ..

وانتهى القرن الرابع عشر وبدأ القرن الخامس عشر : : منذ أن ظهر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . ولم يظهر بعده . . أحد . :

وجاء فى الإصحاح السابع من انجيل متى النص :

(احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم . هل يجنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً . هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة . وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية . لاتقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولاشجرة ردية تصنع أثمارا جيدة . كل شجرة لاتصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار . فاذا من ثمارهم تعرفونهم) .

والنص يؤكد ظهور أنبياء بعد عيسى . ولكن منهم الكذبة ومنهم من يصدق . . ويعرف الناس الحقيقة باستعراض دعوتهم . : هل تدعو إلى الخير : . أم إلى الشر . : هل تدعو إلى الحق أم إلى الباطل . : هل تدعو إلى عبادة الله . . أم السير فى موكب الشيطان : :

ويقول الأستاذ بشرى زخارى ميخائيل فى كتابه (محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل) فى التعليق على النص السابق من الانجيل (لم يقل السيد المسيح احترزوا من الأنبياء فيكون التقرير قاطعاً بأنه لم يعد هناك أنبياء بعده : : ثم أخبر بأن نمتحن الأنبياء من ثمارهم : :

فكأن هناك أنبياء سنعرفهم من ثمارهم الرديئة وغيرهم من ثمارهم الجيدة . . وهذه بشارة بأن بعده سيكون أنبياء ونعرفهم من ثمارهم)

فهل هناك من نبي بعد عيسى جاء بالشريعة والحقيقة . . الشريعة السمحة : : والحقيقة الجلية : . الشريعة التي وضعت لعلاقات البشر بعضهم ببعض وعلاقتهم بربهم : . أفضل القواعد . . وأحسن القوانين وشملت الشريعة كل ما يلزم الإنسان فى حياته . . البيع . : والشراء . . والحرب والسلام : . والعطاء والاقتصاد . : الزواج والطلاق الأهل والجوار . : الصغار والكبار . . الأبناء والآباء . . والأخوة والأصهار . . ما تركت أى ما يجول فى خاطر إنسان إلا أوضحته : : والحقيقة التى جاء بها . . هى الحقيقة المؤكدة التى يشير إليها الوجود كله . . وجود الله . : ووحدانيته والالتزام بعبادته وأداء فرائضه : تلك التى تحقق للإنسان الخير فى دنياه : : والخير فى أخراه : . الخير للفرد : : والخير للمجتمع . : هل هناك غيره : . غير النبى محمد رسول الله : : صلى الله عليه وسلم : :

وهذه السلسلة المتلاحقة من الرسالات والنبوات : : وهذه المجموعة المتكاملة من الرسل والنبيين منذ آدم . . حتى محمد : : عليهم الصلاة والسلام . . إنما كلها أرسلها الله : : الواحد الأحد : : بديانة أساسها واحد : : وهدفها واحد : : والمتدبر لكل ما جاءت به الرسل والأنبياء ليجد أنها جميعاً متشابهة : : وإنما يكمل بعضها البعض : : دون أى تعارض : : أو تناقض : : فقد تجمل الواحدة : : ما تفصله التالية : : ولذلك نجد أن القرآن الكريم : : آخر الأديان : :

وأكمل الرسالات : : قد أورد تفصيل ما أجملته الرسالات السابقة : وبين ما قد يلتبس على البعض : : لاسيا وأن نهاية الكتب وآخر اا سالات لابد أن تشتمل على ما قد يعترض البشرية من أمور استلزمتها كثرتهم العددية : : وتشعب شئونهم . . وتشابك أمورهم ولكن أصولها كلها واحدة : : وأساسها جميعا واحد . .

فني الرسالة السابقة على رسالة عيسى : : وهى التوراة : : التى نزلت على سابقه وعلى سابق يحيي أيضاً . . وهو سيدنا موسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام : : نجد الأصول الأساسية للرسالة التى يدعو إليها الدين الذى جاء به موسى : : نجدها نصاً صريحاً فيما ورد فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج هو :

(أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك :

لاتقتل :

لاتزن :

لاتسرق :

لاتشهد على قريبك شهادة الزور :

لاتشته بيت قريبك :

لاتشته امرأة قريبك ولاعبده : ولاأمته ولاثوره ولاحماره ولاشيئاً مما لقريبك) .

وفى رسالة عيسى لا بد نجد نفس الأصول : : بل نفس الأوامر : : وبنفس الألفاظ وذلك حسبما جاء فى الإصحاح التاسع عشر من انجيل متى وبالنص :

(ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا . قال له أية الوصايا . : فقال يسوع :

لاتقتل :

لاتزن :

لاتسرق :

لاتشهد الزور :

أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك) : : .

فهل أغفلت الرسالة الآخرة :: رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم هذه الأوامر : : وهذه الأصول :: أم جاءت بعكسها :: أو ناقضتها :: أم ياترى وافقتها وشابهتها . :

إن القرآن الكريم :: قد جاء بكل هذه الأصول وأورد هذه الأوامر ولكنه فصلها تفصيلا وأوضح أبعادها . . توضيحاً دقيقاً : : وبين الرأى فيما قد يعترض البشر بشأنها : : وماقد يتضارب رأى الناس فيها : : ويتناقضون عندها . :

إن التوراة والإنجيل . . أى رسالة موسى ورسالة عيسى . : قد أمرت باكرام الأب والأم . : فياترى وقد اتسعت مدارك الناس : : وتعددت اتجاهاتهم : : وتباينت أحوالهم : : وتضاربت أمور حياتهم

وزاد البشر . . واحتدم الصراع حول الحياة : : وما يصيبه الإنسان فيها من أرزاق ومعايش كيف يكون إكرام الأب والأم ؟ : : بالإنفاق مثلا ؟ . . وإذا لم يكونا فى حاجة إلى الإنفاق عليهما : : بل إذا كانا هما أكثر غنى وثراء من أبنائهما : : فكيف يكون إذا الإكرام . ؟

إن القرآن الكريم فى هذا الشأن قد أوضح تفصيلا ما يجب على الإنسان نحو أبويه . . فلقد أوجب وجوباً قاطعاً . : بل جعل الأمر قضاء من الله : : كما يقضى بعبادته وحده : . قضى أن يحسن الإنسان لوالديه . : والإحسان يكون بالعطاء . . كما يكون بالحديث ويكون بالسهر عليهما .. ومسامرتهما .. والتلطف معهما . . والبشاشة لهما فاذا شاخا .. وأصابهما .. أحدهما أو كلاهما .. العجز والسن : : فرجعا كالأطفال . . فى حديثهما . . أو تفكيرهما . . وجب على الإنسان أن يتحملهما . . ولايتضجر من أمرهما . . بل يلاطفهما : : حتى إذا أتيا ما لايجب فليس عليه أن ينهرهما كما ينهر الأطفال : : بل يتحدث إليهما بكل قول كريم : : وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدينِ إِحسانًا إِمَّا يَبلغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهما أَوكِلاَهُمَا فَلاتَقل لَهُمَا أُفٌّ ولاَتَنْهرهُمَا وَقل لَهمَا قَولا كَرِيمًا . وَاخفض لَهمَا جَنَاح الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقل رب ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِى صَغيرًا » .

(٢٣ - ٢٤ سورة الاسراء)

بل مهما حاولا ايذاء الابن . . فلايرد عليهما الإيذاء بمثله . :
وإنما يحتمله منهما . . إلى درجة أنهما لو حاولا صرف الإنسان عن
الإيمان بالله ودفعه إلى الشرك . : واجتهدا فى هذه المحاولة لدرجة
المجاهدة أي الشدة والإمعان فى السعى لدرجة الإجهاد . . فعلى
الإنسان أن يصاحبهما أيضاً بكل معروف فلاعدوان عليهما . .
إنما لانطيعهما فيما يحاولان من شرك .. ويظل الإحسان قائماً عليهما . :
وذلك بنص القرآن الكريم إذ يقول :

«وَوَصَّيْنَا الانسانَ بوَالديه حُسنًا وإن جَاهَدَاكَ لتشركَ
بِي مَالَيسَ لَكَ به علمٌ فَلَا تطعهمَا إلىَّ مَرجعُكم فَأنبئكم بمَا
كنتُم تَعمَلونَ » .

(٨ سورة العنكبوت)

وتتكرر التوصية من الله سبحانه للإنسان على والديه بل وتطالب
الآيات الشريفة بأن يشكر الإنسان والديه كما يشكر الله : : وفى
ذلك تقول الآيات الكريمة :

«وَوَصَّينَا الإنسانَ بوَالدَيه حَمَلَتهُ أُمُّهُ وَهنًا عَلَى وَهن
وَفصالهُ فِى عَامَين أَن اشكر لِى وَلِوَالِديكَ إلىَّ المَصِيرُ . وَإن
جَاهَدَاكَ عَلَى أن تشركَ بِى مَالَيسَ لَكَ به عِلمٌ فَلا تُطِعهمَا
وَصَاحِبْهُمَا فى الدُّنيَا مَعْروفًا » .

(١٤ ـ ١٥ سورة لقمان)

وهكذا يتفق القرآن الكريم مع الرسالات السابقة عليه فى الدعوة إلى البر بالوالدين وإكرامهما إلا أنه فصل ما أجملته الرسالات السابقة وبين أبعاد الإكرام وصوره . . وكرر التوصية عليهما لمسايرة ظروف العصور الحاضرة والسابقة عليه . . واللاحقة له . . لأنه آخر الرسالات وأكملها وأتمها . .

وبالنسبة للأمر بعدم القتل : . فلقد جاء الأمر فى الرسالات السابقة مختصراً : : وإن كان يفيد الأجيال السابقة التى كانت تعيش فى زمانها : : فان الأمر قد اختلف يقيناً بعد أن انتشرت المدنية . : وتعددت الأطماع . . وتزايد البشر تزايداً شديداً . . فياترى ماهو الموقف مع من يعصى الأمر الإلهى فيقتل أى إنسان ؟ . . ألايجب قتله : : حتى يكون العقاب من جنس العمل . . وحتى تتخلص البشرية من شروره وعدوانه : . فقد يستمر فى الشر . . ويصر على العدوان. : ويتكرر قتله للناس . . لذلك فان لولى الأمر . . الحق فى أن يقتله . : بل لابد من أن يقتله :: فكان لابدمن نص يمكن للحاكم به أن يأمر بالقتل فى بعض الأحيان .: وإذا وقع عدوان على شعب .. من شعب آخر .: أو حاول عدو الإغارة على قوم بسبب أو لآخر . . أو تحركت دولة للقتال . . هل يجوز أن يقف الإنسان مكتوف الأيدى . . حتى يُقتل ولا يَقتل : : أم لابد له من أن يسارع فيأخذ سلاحه . . ليشهره ويدافع به عن وطنه . . ونفسه وماله وأهله : . فلا بد إذا من السماح بالقتل . . وظروف غير ذلك لابد فيها من الترخيص بالقتل : : إذا كان القتل حقاً واجب الأداء : . وهذا ماقال به القرآن الكريم آخر

الرسالات القدسية . . ونهاية النبوات الدينية . . أمر بعدم القتل . إلا للحق . . وبالحق . .

وذلك بالنص الكريم :

« وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَق » .

(٣٣ سورة الاسراء)

وهكذا يأمر القرآن الكريم أمراً واجباً وملزماً بعدم قتل النفس . . أى نفس . ومنها نفس الإنسان نفسه . . أى الانتحار لأن بالانتحار يقتل الإنسان نفساً هى نفسه . . وأجاز القتل بالحق . . الحق الذى يحدده الشرع . . وينفذه ولى الأمر . . أو يأمر به الحاكم أو إذا كان القتل للحرب .

وحيث أن بعض الناس قد يظنون أن أولادهم . . هم ملك لهم . . ولهم الحق أن يفعلوا بهم ما يشاءون ولذلك فقد يقتلونهم خوف الفقر . . أو أماناً من الفاقة . . فلقد أورد القرآن الكريم الأمر بالنص على عدم قتل الإنسان لأولاده بل كرر ذلك فى موضعين من القرآن الكريم بالنص الشريف :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِن إِمْلَاق نَحنُ نَرزُقكُم وَإِيَّاهُم » .

(١٥١ سورة الانعام)

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادكُم خَشيَةَ إِمْلَاقٍ نَحنُ نَرزُقُهم وَإِيَّاكُم » .

(٣١ سورة الاسراء)

وحتى يظهر القرآن الكريم للناس مدى فداحة قتل الإنسان لنفس

واحدة : : سواء أكانت نفسه أو نفس غيره فان الآيات الشريفة تقول بالنص الكريم :

«مَن قَتَلَ نَفسًا بغير نَفس أَو فَسَاد فِى الأَرْض فَكَأَنَّمَا قتل النَّاس جَميعًا » .

(٣٢ سورة المائدة)

ولكن ترى ماالسبيل لو أن الإنسان قتل غيره خطأ . . وهذا قد يحدث . . بل فى ظروف مختلفة يحدث وإن كان ذلك قد ندر فى الأزمان السابقة إلاأنه فى عصرنا الحالى . : وفى العصور التالية سيزيد هذا القتل الخطأ . : ولو من حوادث السيارات نظراً لازدحام الطرق . . فهل يظل هذا القاتل الذى قتل خطأ فى جحيم التعذيب . . وفى نار الخوف طوال حياته لأنه يكون وكأنه قتل الناس جميعاً إن القرآن الكريم قد وضع العلاج : . وقرر القرآن فى شأنه . : عدالة ورحمة . . إذ تقول آياته الشريفة .

« وما كَانَ لمُؤمنٍ أن يقْتُلَ مُؤْمنًا إلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمنًا خَطَأً فتحْرِيرُ رَقَبَة مُؤمنَة وَديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أهله إلَّا أن يصَّدَّقُوا فإن كَانَ من قوم عَدُوٍ لَكم وَهوَ مُؤْمنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَة مُؤْمِنَة وَإنْ كَانَ من قَوم بينَكم وبَيْنَهم ميثَاقٌ فَديةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أهله وتحرِيرُ رقَبة مُؤمنَة فَمن لَمْ يَجدْ فَصِيامُ شَهْرينِ مُتَتَابِعَينِ تَوْبَةً مِن اللهِ وكَانَ اللهُ عليمًا حَكيمًا . ومَن يَقتُل مُؤْمِنًا مُتعَمِّدًا فَجزاؤهُ

جَهَنَّمُ خَالِدًا فيهَا وغَضِبَ اللهُ عليْهِ ولَعنَهُ وَأعدَّ لَهُ عذَابًا عَظيمًا » .

(٩٢ – ٩٣ سورة النساء)

وهكذا بين القرآن الكريم كل الظروف التى قد يتعرض لها الإنسان فى حياته من ناحية القتل . : القتل العمد المحرم : : والقتل الخطأ . . والقتل بالحق . : وفصل تفصيلا واضحاً : : مايتخذ بشأنها . . إذا كان القتل قد وقع خطأ : . سواء أكان المقتول : : من الأعداء . أو من الإخوة والأنصار : :

وأمر القرآن الكريم الناس بعدم السرقة : : السرقة بكافة أشكالها : : وأنواعها : : وأيا كان قدرها : : وعلى أى صورة كانت : : فقد يتبادر إلى الذهن أن السرقة إنما هى مجرد الحادث الذى تمتد به يد السارق ليأخذ من ثياب غيره ماله سراً . : أو يتسلل إلى منزل الآخرين فيسلبهم متاعهم أو حليهم أو مالهم . . ولكن الحقيقة من باع لغيره متاعه أقل مما يستحق فهو سارق . . ومن اشترى من غيره فأخذ أكثر من حقه فهو سارق . . ولذلك فان القرآن الكريم قد أكد على ضرورة إقامة الحق فى البيع والشراء : : بل أنزل سورة كاملة باسم المطففين . . توعدهم . . وهددهم وحذرهم وأنذرهم . . وعلاوة على ذلك تكررت الدعوة إلى عدم السرقة باقامة القسط والعدل فى البيع والشراء وكافة المعاملات وذلك يمثل النص الشريف بالأمر الواضح الصريح .

«وَأَقِيمُوا الوَزنَ بالقِسطِ ولَا تخسِرُوا الميزَانَ» .

(٩ سورة الرحمن)

ولقد جعل القرآن الكريم عدم السرقة من ضمن ما تم به البيعة للرسول على الايمان والإسلام بل ووضعها فى مصاف الشرك بالله إذ أمر بأن يبايع النساء الرسول على عدم الشرك بالله وعدم السرقة وذلك بالنص الشريف :

«يَاأَيُّهَا النَّبِي إذَا جَاءكَ المؤمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَايُشرِكن بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يسرقنَ وَلَايزنِينَ وَلَا يقتُلنَ أَولَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ ببُهتَان يَفْتَرِينَهُ بَينَ أَيديهِنَ وَأَرْجلهنَّ وَلَا يَعصِينَكَ فِى مَعْرُوف فَبَايِعهنَّ واستَغفِر لهَنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

(١٢ سورة الممتحنة)

وبذلك قطع أى شك قد يقوم لدى البعض أن السرقة إنما تحرم على الرجل فقط . . بل إن المرأة والرجل سواء فى ذلك . .

أما إذا حدث ووقعت السرقة . . فلقد قرر القرآن الكريم العقاب بسببها . . عقاباً عادلا . . وجزاءاً رادعاً . . ولافارق أيضاً فيه بين المرأة والرجل إذ يقول النص الشريف :

«وَالسارق والسارقة فَاقطَعُوا أَيديَهمَا جَزَاءً بما كَسَبَا نَكَالاً مِن اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

(٣٨ سورة المائدة)

وإذا كانت الرسالات السابقة على الإسلام قد نهت عن الزنا . .
فإن القرآن الكريم . . آخر الرسالات وأكملها وأتمها . . حيث
لارسالة بعده تكمله أو تتمه . . قد حرمه تحريماً قاطعاً ومطلقاً . .
فعلاوة على أنه جعله مما يبايع الإنسان فيه الرسول صلى الله عليه
وسلم على عدم إتيانه فقد تكرر بيان خطره وجرمه . . وإنه لفاحشة . .
وساء سبيل من يقترفه وذلك بالنص الكريم :

«ولَا تَقْرَبُوا الزِّنى إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً» .

(٣٢ سورة الاسراء)

وحتى يبتعد الرجل عن الزنا . . ويخشى اتيانه فقد قرر القرآن
الكريم أن من يزنى بها الرجل فهى قطعاً زانية أو مشركة . . ولذا
يجب الابتعاد عنها . . وحتى يحول بين المرأة والزنا فقد قرر
أن من يزنى بامرأة . . فهو زان أو مشرك . . وعلاوة على ذلك فقد
حرم ذلك على المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء . . تحريماً
قاطعاً . . بقول واضح . . ونص صريح إذ تقول آيات القرآن
الكريم الشريفة :

«الزَّانِى لَايَنكحُ إلَّا زَانيَةً أَو مُشركةً وَالزَّانيَةُ لَايَنْكِحُهَا
إلَّا زَانٍ أَو مُشرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤمِنينَ » .

(٣ سورة النور)

أما عن شهادة الزور . . فكما نهت عنها الرسالات السابقة . .
فلقد أمرت الرسالة الأخيرة بألا يقرب الإنسان شهادة الزور إذ
قررت أن الذين لايشهدون الزور كهؤلاء الذين يستجيبون لأمر

ربهم استجابة المؤمن الواثق المقنع وهم يكونون أئمة للمتقين وأما جزاؤهم فالجنة خالدين فيها وذلك بالنص الشريف:

« وَالَّذِينَ لَايَشهَدُونَ الزورَ وَإِذَا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهم لَم يَخرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُميَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَب لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجعَلنَا لِلمُتَّقِينَ إِمَامًا. أُولَئِكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا. خَالِدِينَ فيهَا حَسُنَت مُستَقَرًا وَمُقَامًا ».

(٧٢ - ٧٥ سورة الفرقان)

وحتى يتحرى الإنسان العدل كل العدل فى الشهادة .. فلايزيد عليها شيئاً .. ولاينقص منها قدراً .. فإن القرآن الكريم قد كرر أن الشهادة لله .. فلا يمكن للإنسان بعدها إلا أن يتحرى الصدق كل الصدق .. وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

« وَأَشهِدُوا ذَوَى عدل مِنكُم وَأَقيمُوا الشَّهَادَةَ لِلهِ ذَلِكُم يُوعَظ به مَن كَانَ يُؤمنُ بالله واليوم الآخر وَمَن يَتَّقِ الله يَجعَل لَّهُ مخرَجًا . ويَرزُقْهُ من حَيثُ لَايَحتَسبُ وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى الله فَهُوَ حَسبُه إنَّ اللهَ بَالغُ أَمْرِهِ قد جَعَلَ اللهُ لكُلِّ شيء قَدرًا » .

(٢ - ٣ سورة الطلاق)

بل إن القرآن الكريم قرر بشأن الشهادة . : أموراً كثيرة تعتبر أروع وأسمى وأعظم ما يمكن أن تدفع الإنسان إلى الشهادة : : والشهادة الحقة الصادقة : . فعلى الإنسان إذا ما طلب للشهادة أن يبادر فوراً إلى أدائها . . ولايتخلف عنها وذلك بالنص الشريف أمراً كريماً واجب التنفيذ :

« ولَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » .

(٢٨٣ سورة البقرة)

ويطالب القرآن الكريم الإنسان ألا يكون سلبياً فى أمر الشهادة فلا يتقدم لها إلا إذا دعى . : بل عليه أن يسارع بإعلانها . . فلايكتمها فطالما أنه رأى ما يجب عليه أن يتقدم بالشهادة به . . فلا يتأخر : : إذ من يكتمها ويخفيها يرتكب إثماً كبيراً : : وذنباً خطيراً : . فلقد إثم قلبه : : وذلك بنص الآية الشريفة :

« وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » .

(٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا أوضح القرآن الكريم بنصوص صريحة كل واجبات الإنسان نحو الشهادة : . مقرراً بشأنها كل الأصول الحكيمة . : والمبادىء السليمة : : التى يقوم على أساسها : . المجتمع الأمين الفاضل . : تطوع بأداء الشهادة فلايكتمها : : وتلبية الدعوة إذا مادعى إليها . : ولا يقول فيها أى زور . . بل الحق كل الحق : :

لايخفيه ولاينقص منه : . أو يزيد عليه . . فان الشهادة لله : : سبحانه وتعالى . . جل شأنه . .

وفى علاقة الإنسان بغيره من الناس تقول التوراة المتداولة .
(لاتشته امرأة قريبك ولاعبده ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولاشيئاً مما لقريبك) .

وتقول الاناجيل المتداولة (أحب قريبك كنفسك) . .

ولقد جاء القرآن الكريم فى ثلاثة ألفاظ قصار ذات بلاغة وبيان . . وذوات سحر وجلال بدستور عن علاقة الإنسان بغيره لاتتسع لبيان صورها . . ومعانيها . . وطرقها . . وسبل تنفيذها بل مجرد أبوابها . . المجلدات . . والآلاف من المؤلفات . . إذ حوت هذه الألفاظ الثلاث كل القيم الرائعة . . والمبادىء السامية والأخلاقيات العالية . . ونص هذه الثلاثة ألفاظ هى :
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنونَ إِخْوَةٌ » .

(١٠ سورة الحجرات)

هكذا تقوم دولة الأخوة . . دولة تتسع رقعتها لتشمل المؤمنين جميعاً . . يتعامل فيها هذه الملايين العديدة كما يتعامل الأخ مع أخيه . . حب وود . . وإخلاص ووفاء . . وكل يؤثر أخاه عن نفسه . . يفضله على نفسه عند العطاء . . ويتقدم عنه ليحميه بالفداء . .

وكشأن القرآن الكريم . . فى كل ما يأمر به . . وفى كل ما ينهى عنه . يكرر الدعوة . . بألفاظ مختلفة . . وبصور شتى . . فلقد

أورد نصوصاً . . ثأمر الإنسان ألا يشته ما قد يكون الله سبحانه وتعالى قد متع بها غيره . . مما قد يفتن به . . وذلك تمثل النص الشريف :

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتعنَا به أَزْوَاجًا منهم زَهْرَةَ الْحيَاة الدُّنيَا لنَفتنَهُمْ فيه وَرِزقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبقَى » .

(۱۳۱ سورة طه)

هذه الأوامر والنواهى التى تتكرر أصولها فى كافة الرسالات ووردت نصوص متوافقة ومتشابهة فى كافة الدعوات التى قال بها من هم قبل يحيى . . وجاء بها من هو بعد عيسى . . وشابه بها عيسى غيره من السابقين عليه . . ومن لحقه به . . إنما تعتبر للذلك الركائز الثابتة لدين واحد . . ولدعوة واحدة . . وحقيقة واحدة . . هذا الدين هو . . الإيمان بالله . . وحده . . والتسليم الكامل المطلق له . . جل شأنه . وهذه الدعوة . . هى الدعوة إلى عبادته وحده . . وهذه الحقيقة هى حقيقة وحدانية الله سبحانه وتعالى . . فياترى كيف عالجت هذه الرسالات . . وكيف أكدت هذه الدعوات التوحيد والتسليم والعبادة . . وكيف أوردت هذه الحقيقة المؤكدة . . الحقيقة الأولى التى يقوم عليها الوجود . . وجود الله . . ووحدانيته . . فهو الله . . وكل من عداه عباده . . وهو الخالق وكل ما سواه مخلوق . . هذه الحقيقة تشير إليها كافة الأدلة والبراهين النقلية . . والسمعية . . والنظرية . . وتؤكدها كافة الدراسات والأبحاث العقلية . . والمنطقية . . والعملية . .

نجد فى نسخ العهد القديم المتداولة : : فى إصحاح واحد هو الإصحاح التاسع عشر من سفر واحد هو سفر لاويين مثلا : : يتكرر فيه جملة واحدة هى (أنا الرب إلهكم) ثمانى مرات : : فى مثل النص :

(أنا الرب إلهكم : لاتتلفتوا إلى الأوثان وآلهة مسبوكة لاتصغوا لأنفسكم : أنا الرب إلهكم) ويتكرر فى نفس الإصحاح علاوة على ذلك جملة (أنا الرب) نفس العدد : : أى ثمان مرات : وذلك بمثل النص :

(أنا الرب لاتلفتوا إلى الجان ولاتطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم) :

ويتكرر ذكر هذه الحقيقة والدعوة إليها فى كل أسفار العهد القديم : : لتقرر أن هذه كانت أساس دعوة سيدنا موسى ﷺ وهو من كان قبل يحيى وعيسى : : فنجد فى سفر الخروج الإصحاح العشرون النص الآتى :

(ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية : لايكن لك آلهة أخرى أمامى : لاتصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض : لاتسجد لهن ولاتعبدهن : لأنى أنا رب الهك) :

وفى سفر الملوك الأول : : الإصحاح الثامن يقول العهد القديم عن سيدنا سليمان ما نصه :

(ووقف سليمان أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة اسرائيل وبسط يديه إلى السماء : وقال أيها الرب إله اسرائيل ليس إله مثلك

فى السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم) .

أما فى العهد الجديد.. أى فى الأناجيل .. التى كتبها اتباعه مما حفظوه فإنها أيضاً تكرر وتؤكد دعوة سيدنا عيسى . . بهذه الحقيقة الله واحد .. ولا إله إلا هو .. فيقول انجيل يوحنا فى الإصحاح السابع عشر ما نصه .

(وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

فالحياة الأبدية .. أن يعرف الإنسان أن الله وحده . . لا إله إلا هو . . وأن كل من عداه خلق خلقهم .. وأن الرسل خلق من خلقه أرسلهم سبحانه وتعالى لعباده .. وهذا أيضاً ما حرص سيدنا عيسى على تكراره لتأكيد هذه الحقيقة .. لا إله إلا الله . . وعيسى رسول الله.. وذلك يمثل ما جاء فى إنجيل يوحنا فى الإصحاح الخامس بنصه :

(الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية) .

وهذا لاشك انما لتترسخ فى نفوس الناس حقيقة وجود الله ووحدانيته . . وحتى لايحاول أى إنسان إعطاء الرسل ماليس لهم .. أو الاعتقاد فيهم . بما يخالف أمرهم . . أو الاتجاه إلى غير الله .. من الجن أو التماثيل أو الأصنام .. لابقلبه . . ولابجسمه . . ولابروحه ولانظره .. وإنما الاتجاه بالعقل والروح والنظر والفكر إنما يكون لله وحده .. وهذا ما جاءت به النصوص السابقة .. فى صراحة ووضوح .. .

أفليس هذا ما دعت إليه الرسالة الأخيرة ؟ : .

إذ يقول القرآن الكريم إن لاإله إلا الله . . ويكرر التأكيد عليها : : والقول بها : : وذلك بمثل النص الشريف :

« (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

(١٣ سورة التغابن)

ولايمكن أن يتخيل الإنسان صورة تستهدف التأكيد على وحدانية الله سبحانه وتعالى ووجوده مثلما تتضح فى تردد اسم الله حوالى ٢٧٠٢ مرة فى القرآن الكريم غير لفظ الرب والذى يتكرر حوالى ٩٧٠ مرة : :

ويدعو إلى عبادة الله وحده ولايشرك الإنسان به شيئاً : : لافى عقيدته . . ولافى عبادته . . ولافى ظنه ولا فى علمه . . لافى منامه ولايقظته . . وتتكرر هذه الدعوة فى كل سورة . . وذلك بمثل النص الكريم :

«وَاعبُدُوا اللهَ ولَا تُشركوا به شَيئًا » .

(٣٦ سورة النساء)

بل ما أجمل أن أفرد القرآن الكريم سورة خاصة لتوحيد الله سبحانه وتعالى . . ثم يطلق عليها سورة الإخلاص . . الإخلاص بالحقيقة : . للحق : . وحده : . سبحانه وتعالى ونصها الكريم :

«قُل هُو اللهُ أَحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَم يَلد وَلَم يُولَد . وَلَم يَكُن لَهُ كُفوًا أَحَدٌ » .

وكل من سبقوا يحيي : : وكل من جاءوا بعده . . وهم عيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم قد اتفقوا جميعاً على بيان حقيقتهم التى لاشك فيها إنهم بشر . . من خلق الله . : اختارهم سبحانه وتعالى ليكونوا رسله للناس :. فهو الله :. الذى أرسلهم :. وهم العباد المرسلون من الله للناس ::

فيقول انجيل يوحنا فى الإصحاح السابع :

(فنادى يسوع وهو يعلم فى الهيكل قائلا تعرفوننى وتعرفون من أين أنا ومن نفسى لم آت بل الذى أرسلنى هو حق الذى أنتم لستم تعرفونه) :

فسيدنا عيسى : : يقول إنه من لم يأت من نفسه : : فهو لايستطيع ذلك : : إنما هو رسول : : أرسله الحق : : الحق وحده : : سبحانه وتعالى : :

ولقد حرص القرآن الكريم : : على بيان هذه الحقيقة والتأكيد عليها فجميع رسل الله جل شأنه عباد له : : أرسلهم : فيقرر أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم إنما هو بشر مثل باقى البشر إنما يوحى الله إليه بما شاء أن يبلغه به عباده وذلك بالنص الشريف :

« قُل إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مثلكُم يُوحى إلىَّ أنَّمَا إلٰهكم إلٰهٌ وَاحدٌ ».
(١١٠ سورة الكهف)

وكل من أرسلوا قبله : : إنما رسل مثله أيضاً وذلك بالنص الكريم :

«وَلَقَدْ أَرسَلنَا من قَبْلكَ رُسُلاً إلَى قَومِهِم فَجَاءُوهم بالبينَاتِ فَانْتَقَمْنَا منَ الَّذينَ أَجْرمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصرُ المؤْمِنِينَ».
(٤٧ سورة الروم)

ولاشك أن هؤلاء الذين سبقوا . . جميعاً قد تميزوا . . بالخلق الذى يجب أن يتحلى به من اصطفاهم الله . . على علم منه . . واختارهم برغبة منه . . وأعدهم بما يصلح شأنهم وشأن الناس ولاشك أن كل الرسل إنما كانت تدعو إلى الرحمة . . والمحبة . . والتسامح . . ولابد أنهم كانوا المثل لما يدعون إليه . . وما يقولون به . . فهل كان آخر الرسل والأنبياء . . إلا كذلك . . لقد كتب عن خلق محمد وشخصيته مالا يمكن حصر عدده من مؤلفات ومراجع . . ولكن ياترى كيف كتب المنصفون من غير العرب الذين تعمقوا فى دراسة شخصية النبى محمد . .

يقول الدكتور غوستافت (كان محمد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لقومه . . كان خلقه نقياً من كل دنس ، مبرأ من كل عيب وكان ملبسه ومطعمه يمتازان بالبساطة النادرة وكان متواضعاً يكره الادعاء فلا يقبل من أصحابه مظهراً خاصاً من مظاهر الاحترام . . ولم يكن يسمح لخادمه أن يصنع له شيئاً يستطيع هو أن يصنعه بنفسه . وكثيراً ما رآه الناس فى الأسواق يشترى حاجاته بنفسه . . وكثيراً ماكان يرقع ثوبه فى حجرته أو يحلب عنزته فى فناء داره . . وكان قريباً من الناس فى كل وقت يعود المرضى ويعطف على الجميع ولم يقف جوده وإحسانه عند حد . . وكذلك

اهتمامه بأمر المسلمين . . وعلى الرغم من الهدايا التى كانت تنهال عليه من كل حدب وصوب لم يترك بعد موته إلا القليل وحتى هذا القليل كان يعده ملكاً للدولة) .

ويقول مستربول عن سيدنا محمد ما نصه (لقد حباه الله بحظ وافر من الرقة والحنان : وقسط كبير من الشجاعة وثبات الجنان حتى ليحار المرء إزاء ما يستولى عليه من شعور الحب والاحترام اللذين تبعثهما فى النفس هذه الشخصية الفذة . . فهو الذى واجه بشجاعة عداوة قومه عدة سنين . . وهو الذى لم يكن لفرط رقته ورحمته ينزع يده من يد من يصافحه حتى يرسلها الآخر . . كان يحب الأطفال . . لم يمر على جماعة منهم دون ابتسامة رقيقة ونظرة رائعة وكلمة لطيفة يزيدها لطفاً ماحباه الله من صوت رخيم : : ولاريب أن ماكان يتحلى به من الصحبة الصادقة والسخاء الفياض والشجاعة التى لا تعرف الخوف . . والرجاء الذى يعتقده فيه الناس : . يحمل عدوه على الإعجاب به : . كان شديد الغيرة فى الحق شأن عظماء الرجال : : تلك الغيرة التى تحمى الإنسان من الموت وهو حى وكثيراً ما تكون الغيرة مشوبة بالحقد لاسيما فى سفاسف الأمور وما هكذا كان شأن محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان شديد الغيرة على الحق حينما تكون الغيرة هى الوسيلة الوحيدة لايقاظ الشعور والوجدان . . وكان عالى الهمة يرنو بعزمه إلى معالى الأمور . . وكان من أولئك السعداء القلائل الذين يغتبطون أيما اغتباط بتكريس حياتهم للجهاد فى سبيل إحدى القضايا الكبيرة : . كان رسول الله

الذى لاإله غيره . . لم ينس قط إلى آخر يوم فى حياته أنه رسول الله ؛ ولم ينس قط تلك الرسالة التى كانت لحمة حياته وسداها وبلغ الرسالة إلى قومه محتفظاً بعزة نفسه لشعوره بمنصبه الرفيع وهو مع ذلك جم التواضع لاعتقاده أنه من جنس البشر) ؛

وفى كتاب (المثل الأعلى للأنبياء) ألفه بالإنجليزية ر . خ . كمال الدين قدم له اللورد هدلى بقوله (حاول بعضهم منذ أن ظهرت المؤلفات الحديثة فى الإسلام أن يبين أن المسلمين يحاولون تصوير النبى صلى الله عليه وسلم بصورة تخالف الواقع وأنهم يضعون الإسلام فى ثوب جديد لتحبيب الناس فى الدخول فيه ولكن هؤلاء غاب عنهم شىء واحد . غاب عنهم أن الحقائق التاريخية الخاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم هى من الشهرة والثبوت بحيث لا يتسنى معها اختلاق شىء جديد) .

ولاشك أن القول الفصل . . هو ماقال به القرآن الكريم . . إذ يقول عنه صلى الله عليه وسلم :

«وَإِنَّكَ لَعَلَى خلق عَظِيمٍ» .

(٤سورة القلم)

ترى هل وجد الناس الذين عايشوه صلى الله عليه وسلم . . وخالطوه . . وعرفوه . . وسمعوه . . ودرسوه . . انطباقاً من حاله لهذه الآية . . أم وجدوا غير ذلك . .

لاشك أن كل إعرابى أسلم . . إنما لأنه وجد ما يقوله الرسول وحياً من الله صدقاً . . ومما قاله . . ماجاء فى هذه الآية . . فيكون كل

من أسلم قد شهد : : بحق وصدق . . أن الرسول كان على خلق عظيم : . ألا تكفى شهادة عشرة آلاف مليون من الناس . . هم عدد من أسلموا منذ دعوته صلى الله عليه وسلم حتى الآن على أقل تقدير . : باعتبار أن العدد الحالى من المسلمين هو ستمائة مليون نسمة : . وقد انقضى على بدء الدعوة ألف واربعمائة سنة : : ويكون هذا التقدير هو أقل التقدير العددى : :

أما شهادات المؤرخين . . الدارسين لحياة محمد صلى الله عليه وسلم . . الجادين فى الدراسة . . المحايدين فى الفكر . . والمخالفين له فى العقيدة . : فإنها كثيرة كثرة بالغة . . لايستطيع القلم أن يحصى عددها . . ومن هؤلاء من اعتنقوا الإسلام : . إيماناً بمن دعا إليه . : وكلما تعمقوا فى دراسة هذه الدعوة . . ارتفعت أصواتهم بالدعوة إلى هذا الدين : . الذى لايختلف عن أى دين : . دعا به الرسل . : وجاءت به الأنبياء فإن الدين . . واحد . . أصله واحد . . أرسله الله الواحد : : وجوهر الدين . . أى دين . . وكل دين واحد . : عبادة الله . . وتوحيده . . والإيمان به . . والتسليم له . . فالدين . . كل دين . . هو الإسلام . . إسلام الإنسان نفسه . . وعقله . . ووجهه وأمره لله . . ولذلك فإن القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة بالنص الشريف :

« إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الاسلَامُ » .

(١٩ سورة آل عمران)

وبشر القرآن الكريم فى كثير من السور : . وكرر القول بأن

من أسلم وجهه إلى الله فله أجره عند ربه فى الدنيا والآخرة : : وذلك يمثل النص الكريم :

«بَلَى مَن أَسلَمَ وَجْهَه لِله وَهُوَ مُحسِن فَلَهُ أَجْرُهُ عندَ رَبِّه وَلَا خَوفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُم يحزَنُونَ» .

(١١٢ سورة البقرة)

وأى دين : : لايقوم على الإسلام . . لايمكن أن يكون مقبولا عند الله : . لأن الأساس هو الإسلام له جل شأنه : : وفى ذلك تقول الآيات الشريفة :

«وَمَن يَبْتَغِ غَيرَ الإسلَامِ دِينًا فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهوَ فِى الآخِرَةِ من الخَاسِرِينَ» .

(٨٥ سورة آل عمران)

إن الإيمان بالله : . وبما أنزل على الأنبياء والرسل . . يستلزمه يقيناً ألا يفرق الإنسان بين هؤلاء الرسل والأنبياء . : لأن الأصل هو الإسلام لله . . فكل من آمن بالله وبرسله فقد أسلم لله . . وبذلك أصبح من المسلمين وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

«قولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنزِل إلَى إبرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ ويَعْقوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَما أُوتِيَ النَبِيُّونَ منَ رَبِّهِم لَانُفَرِّق بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسلِمُونَ».

(١٣٦ سورة البقرة)

ويقرر القرآن الكريم الحق : . فإن جميع الرسل والأنبياء ، كانوا مسلمين . : وكانت دعوتهم إلى الإسلام . . فعن سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم تقول الآيات الشريفة :

«مَا كَانَ ابرَاهِيمُ يهودِيًا وَلَا نصَرانِيًا وَلَكن كَانَ حَنِيفًا مُسلِمًا وَمَا كَانَ منَ المُشرِكِينَ » .

(٦٧ سورة آل عمران)

وفى شأن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام تقول الآيات الكريمة أنه قال لقومه :

«فَإن تَوَليتم فما سَأَلْتُكُم مِّن أجرٍ إن أَجْرِيَ إلَّا عَلَى اللهِ وأُمِرت أن أكون مِنَ المُسلِمِينَ » .

(٧٢ سورة يونس)

ودعا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام وذلك بنص الآية الشريفة :

«وقَالَ مُوسَى يَا قَومِ إن كنتم آمَنتُم بِاللهِ فَعلَيهِ تَوَكَّلوا إن كنتم مُسلمينَ » .

(٨٤ سورة يونس)

وهذا سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يستمر مسلماً حتى يتوفاه الله سبحانه وتعالى على الإسلام وذلك بالنص الكريم :

«رَبِّ قَد آتَيْتَنِى من المُلك وَعَلَّمْتَنى من تَأْوِيل الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا والآخِرة تَوَفَّنِى مُسلِمًا وَأَلحقنى بالصَّالحينَ» .

(١٠١ سورة يوسف)

وسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام : : كانت دعوته : : إلى الإسلام.. واستجاب له أنصاره بل إن من حرصه عليه الصلاة والسلام على الإسلام : : ومعرفة أنصاره لهذا الحرص : : وإيماناً منهم بقدر الإسلام . . فقد طلبوا منه . . أن يشهد لهم بالإسلام . . حيث أنهم آمنوا بالله . : وأصبحوا أنصار الله . : وفى ذلك تقول الآيات الكريمة من القرآن الكريم :

«فَلمَّا أَحَسَّ عيسَى منهمُ الكفر قَالَ مَن أَنصَارى إلى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحنُ أَنصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسلِمُونَ»..

(٥٢ سورة آل عمران)

وإذا كانت هناك ثمة اختلاف بين الرسالات . . فليس فى جوهرها ولا فى أصولها . . ولكن فى قدر ما تضمنته . . فالرسالة التى نزلت لآدم . . وكانت البشرية قاصرة على فردين . . هما آدم وحواء : : وزادت إلى عشرة مثلا . . لا يمكن أن تتضمن التشريعات التى تحتاجها البشرية عندما يبلغ عدد الناس فيها بضعة آلاف قد تشابكت مصالحهم . . واختلفت رغباتهم : . وتعددت نزعاتهم : : وتوسعت معاملاتهم : . وهكذا جاءت الرسالات . . وأرسل كل

نبي ورسول : لقومه : : بما يحتاجون : : وتتابعت الرسالات : :
وتعاقبت النبوات . : وكما كانت هناك رسالة أولى : : بدأت بها
رسالات الله جل شأنه لعباده : : فلابد أن تكون هناك رسالة أخيرة
تنتهي عندها هذه الرسالات : : أما لماذا لابد من رسالة أخيرة : :
ولماذا لم تتعاقب الرسالات بعد : : فإن ذلك لأن العقل البشرى قد
اكتمل وأصبح ليس فى حاجة إلى بيان حقائق أصبحت واضحة
للعقل : : وما عادت تحتاج الى أدلة : : فوجود الله سبحانه وتعالى . :
أصبح العقل يتأكد به ويعتقد فيه : : وأصبح عبادة بقرة . . أو السجود
لتمثال يصنعه الإنسان : : أمر يخالف كل أسباب العقل : : ويناقض كل
وعى وإدراك : : إن العقل الذى أخرج أجهزة ميكانيكية للفضاء
وامتطاها يهبط بها إلى القمر . : نضج النضوج الذى أصبح به
وجود الله : : ووحدانيته من البديهيات التى يؤمن بها : : ولاسيما
وأن العقل قد وصل عن طريق العلم إلى أدلة مادية كلها . . تشير إلى
وجود الله ووحدانيته . : وإلا كيف تقوم الأرض وهى كرة معلقة
فى الفضاء . . من يمسكها . . وكيف تدور حول نفسها . . وحول
الشمس : : والمياه فى الأنهار والمحيطات على سطحها : : :
فلا تسقط الأرض : : ولاتتهاوى المياه . ولاتميد البنايات فوقها . .
لقد رأى العقل وشاهد وتابع حركة دوران الالكترونات والبروتونات
داخل الذرة التى تناهت فى الصغر إلى درجة ظل الاعتقاد أنها غير
قابلة للانقسام أو التجزئة سائداً لفترات طويلة : . إذا فأمر وجود
الله ووحدانيته أصبح مما لايحتاج إلى أدلة . . : فان البراهين العلمية

والأدلة المنطقية . والشواهد العقلية التى يطمئن بها كل فكر . . ويتأكد بها كل عقل .. قد أوردها القرآن الكريم . . فى آيات تبلغ عدة مئات من الآيات الشريفة . . التى يرجع إليها العلم نفسه . . فى تفسير بعض ما يشاهده . . وفى تحقيق بعض ما يصل إليه . .
ولاشك أن القرآن الكريم عندما يتعرض فى آيات وجود الله سبحانه وتعالى . . على أدلة خلق الجنين وتطوراته داخل الرحم . . وتغيرات داخله قبل وبعد الولادة . . وحتى الموت . . وعندما يورد فى أدلة وحدانيته وقدرته جل شأنه . . شواهد الخلق فى السماوات والأرض ومنها ما يتصل أصلا . . بغزو السماء . . والغوص فى البحار . . وتسلق الجبال . . فإن القرآن الكريم . يكون هو الرسالة . . التى صلحت لزمانه . . وتصلح لكل زمان . . فمازالت بعد أربعة عشر قرناً من الزمان . . موضع الإعجاز . . إذ يجد فيها العقل كل يوم . . الجديد الذى ماكان يعرفه . . والفريد الذى ماكان يدريه . . كما أن القرآن الكريم .. نزل فى وقت نمت فيه البشرية وتشابكت مصالحها وتعددت بلادها . . ووجدنا فيه كل ما يحتاجه الإنسان من معرفة بأمور دنياه . . فلقد أوضح أسلوب الحكم . . وبين سبيل التعاون بين الحكام والمحكومين .. حدد حقوق الباعة والمشترين . . وأعلن ما يتخذ فى حالات الحرب والسلام .. حدد علاقة الناس بعضهم ببعض .. الأهل والأقارب والجار . . الأخوة فى الدين . . والأعداء فيه . . الأنصار والخصوم .. ثم بين سبل وأهداف .. العبادات .. وكل يوم يضيف البحث العلمى . . فوائد جديدة لما سبق أن عرف عن أفضال العبادات الاسلامية للإنسان .. لجسمه .. وروحه .. لدنياه وآخرته ..

للفرد ومجتمعه . . وهكذا . . كان لابد من رسالة أخيرة من الله لعباده . . كما كان لابد من رسالة أولى . . ولأن الرسالة الأخيرة . . لابد أن تكون للناس جميعاً . . فلقد كانت رسالة الإسلام . . هي الرسالة التي ينطبق عليها كل ذلك . . وتحقق كل ذلك أيضاً . .

فأما أنها الرسالة الأخيرة . . فهذا هو الحق . . وهذا هو الصدق . . والدليل المادى بين أيدينا وبين ظهرانينا . . إذ لم يتنزل بعد القرآن الكريم رسالات من الله .. وهذا هو واقع الحال . . وحقيقة الأمر . . فلقد انقضى أربعة عشر قرناً من الزمان منذ أن نزل القرآن الكريم . . فهل نزل بعده شيئاً ؟ . . اللهم لا . . لقد كانت الرسالات السابقة . . متلاحقة. والرسل متتابعة.. يرسل النبي أو الرسول . . بمجرد موت السابق عليه. . وهذا ما تقرره الكتب القديمة للأديان السابقة . . فنجد مثلا فى سفر التكوين للعهد القديم فى الإصحاح الخامس والعشرين ما نصه :

(وكان بعد موت ابراهيم أن الله بارك إسحاق ابنه) .

فلقد أرسل الله سبحانه وتعالى إسحاق بمجرد موت ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

وفى العهد الجديد نجد فى انجيل مرقس الإصحاح الأول النص :

(وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله) .

أى أن سيدنا عيسى . . أعلن رسالته ونبوته بمجرد أن أسلم سيدنا يحيي . . للقتل . . وقتل . . فلقد عاشا سويا . . فى الحياة . . وما كان الفرق بينهما سوى بضعة أشهر . .

وها نحن . . بعد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . لم نجد رسولا .. ولا نبياً .. نزل .. وقد انقضى على رسالته صلى الله عليه وسلم ألف وأربعمائة عام . . ألا يكون هو آخر الأنبياء والرسل .. وتكون رسالته . هى آخر الرسالات وأتمها . . وأكملها فلقد ارتضاها الله سبحانه وتعالى لتكون الخاتمة .

هذا هو ما تختلف فيه الرسالة الأخيرة .. عن سابقاتها . . فى أنها ولارسالة بعدها..وكما تختلف الرسالة الأولى..فى أنها ولارسالة قبلها..

كما تختلف الرسالة الأخيرة فى أمر آخر وأخير . . هى أنها رسالة للبشر جميعاً . . وللناس قاطبة بينما الرسالات السابقة كلها . . كانت لأقوام نزلت بينهم فقط . . فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أرسله الله جل شأنه لقومه فقط وذلك بنص ماجاء فى العهد القديم فى سفر الخروج الإصحاح الثالث الذى يقول :

(وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبنى اسرائيل يهوه إله آبائكم إله ابراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلنى إليكم).

ولا يحتاج هذا النص إلى تعليق أو إيضاح . .

أما كتب العهد الجديد فيقول إنجيل متى فى الإصحاح الثانى ما نصه:

(فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه . فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح. فقالوا له فى بيت لحم اليهودية . لأنه هكذا مكتوب بالنبى . . وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل).

وهكذا تقرر الأناجيل أن سيدنا عيسى أرسل لشعب اسرائيل فقط بل إن انجيل متى يقرر فى نص واضح أن سيدنا عيسى عندما أرسل تلاميذه حدد لهم مهمتهم : . هداية بنى اسرائيل . . دون غيرهم وأكد لهم ألا يدخلوا أى مدن أخرى . . أو يتجهوا إلى غيرهم وذلك بالنص الوارد فى الإصحاح العاشر الذى يقول :

(هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لاتمضوا وإلى مدينة للسامرين لاتدخلوا : بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) .

وهذا ما قرره القرآن الكريم فى صراحة ووضوح إذ يقرر ذلك فى آيات كثيرة إن كل الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانوا إلى أقوامهم وذلك بمثل النص الشريف :

« وَلَقَدْ أَرسَلنَا مِنْ قَبلِكَ رُسُلاً إلى قَومِهِم فَجَاءُوهم بالبَيِّنَات »

(٤٧ سورة الروم) .

وذكر القرآن الكريم الرسل محدداً رسالتهم إلى أقوامهم وذلك بمثل النص الكريم بشأن سيدنا نوح :

« وَلَقَد أَرسلنا نُوحًا إلى قَومِهِ إنى لكُم نَذِيرٌ مُبين » .

(٢٥ سورة هود)

وفى شأن سيدنا موسى يقول القرآن الكريم :

وَلَقَد أَرسَلنَا مُوسَى بـآيَاتنَا إلى فِرعَونَ وَمَلَائِهِ » .

(٤٦ سورة الزخرف)

وعن سيدنا عيسى تقول آياته الشريفة :

«وَإِذ قَالَ عِيسَى بنُ مَريَم يابَنِى إسرائيلَ إنِّى رَسُولُ الله إلَيْكُم » .

(٦ سورة الصف)

وذكر القرآن الكريم عدد من أرسل لهم بعض الرسل إذ يقول عن يونس عليه الصلاة والسلام :

«وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلف أو يزِيدُونَ » .

(١٤٧ سورة الصافات)

بينما يقرر أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إنما أرسل للناس كافة وذلك بمثل النص الشريف :

«وما أَرسلنَاكَ إلَّا كافَّةً لِلناسِ بشِيرًا ونذِيرًا » .

(٢٨ سورة سبأ)

ولذلك فعندما يذكر القرآن الكريم الأمة التى أرسل سيدنا محمد منها . . فإنه يقول أنه أرسل فى أمة ولم يقل أرسل لأمة ، أو إلى أمة . . وذلك بالنص الكريم :

«كَذَلكَ أَرسلنَاك فى أُمَّة قَد خَلت من قَبلِها أُمَمٌ » .

(٣٠ سورة الرعد)

ولأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إنما أرسل للناس جميعاً ؛ فإن القرآن الكريم وهو رسالته إليهم من الله قد خاطب جميع الناس وذلك بمثل النداء الكريم :

«يَا أَيُّهَا النَّاس اعْبُدُوا ربَّكمْ الَّذى خَلَقَكم والَّذِينَ مِنْ قَبلِكمْ لعَلَّكمْ تَتَّقُون» . (٢١ سورة البقرة)

وتكرر ذكر الناس ٢٣١ مرة فى القرآن الكريم :
كما خاطب القرآن الكريم فى آيات كثيرة : . الخلق جميعاً : :
وذلك بمثل النداء الشريف فى النص الكريم :

«يا عبَادِى الَّذينَ آمنُوا إنَّ أَرضِى وَاسعَة فَإِيَّاىَ فَا عبُدُونِ » .

(٥٦ سورة العنكبوت)

وكذلك بمثل النص الشريف :

«يا بَنى آدَمَ إمَّا يَأْتِينَّكُم رُسُلٌ مِّنكُم يَقصُّونَ علَيْكَم آياتِى فَمن اتَّقَى وأَصلَح فَلَا خَوفٌ علَيْهم وَلَا هم يحزَنُونَ » .

(٣٥ سورة الأعراف)

وهكذا الرسالات واحدة : : من الله : : الواحد : : وأرسل بها رسله وأنبيائه : : إلى أقوامهم متعاقبين متلاحقين . . إلى أن ختمت بالرسالة الأخيرة : : التى أرسل بها خاتم رسله وأنبيائه للناس كافة : : وللبشر جميعاً : . وهذا ما تقرره كافة الرسالات السابقة نفسها : : وهذا ما يؤكده العقل والمنطق : : ويؤيده الواقع الفعلى : :

صلى الله وسلم عليهم جميعاً :: وجعلنا ممن آمنوا بهم.. ولا يفرقون بينهم::واتبعوا آخر الرسالات.: وتابعوا خاتم الرسل والأنبياء:.وكانوا:: مسلمين :: ديناً :: وعملا.: وقولا.: باطناً وظاهراً .. دنيا وآخرة ::

«رَبَّنَا آمَنَّا بمَا أَنزَلتَ وَاتَّبَعْنا الرسُولَ فَاكتُبنَا مَع الشَّاهِدِينَ »

(٥٣ سورة آل عمران)

صدق الله العظيم

الثمن ٣٠ قرشا

مطابع دار الشعب بالقاهرة